قصص للناشئة

# جين إير

## أو قصة يتيمة

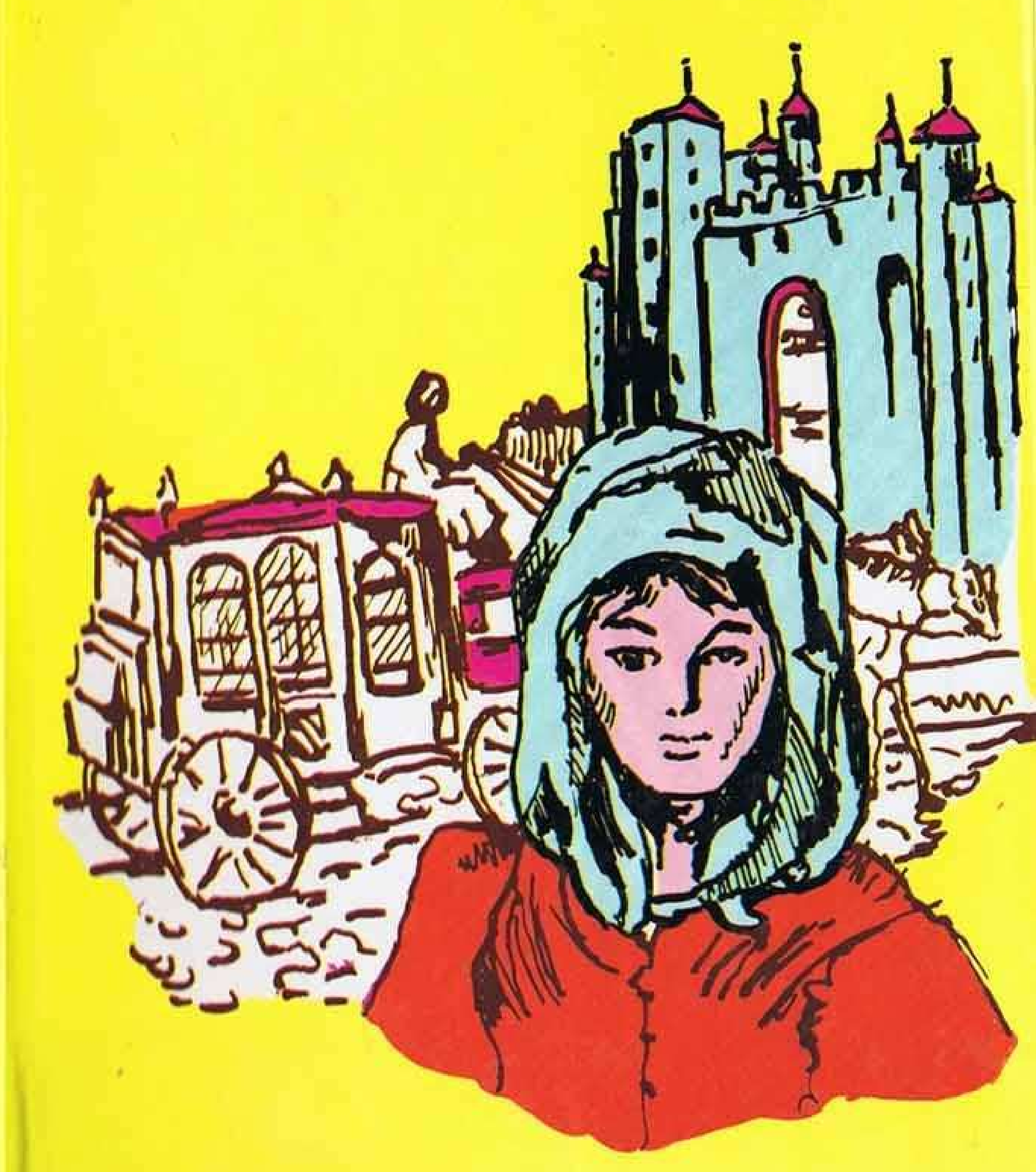
شارلوت برونتي

مكتبة المعارف

جين إير

مكتبة المعارف - بيروت

قصص للناشئة



مكتبة المعارف
بيروت

الغلاف واللوحات
بريشة الفنان
أحمد دالاتي

قصص للناشئة

# جين إير
أو
# قصة يتيمة

شارلوت برونتي

ترجمة وإعداد لجنة من المتخصصين
بإشراف الناشر

مكتبة المعارف
مؤسسة ثقافية للطباعة والنشر - إستيراد وتصدير
بيروت

# قصص للناشئة

هذه المجموعة هي من القصص العالميّة المختارة تقوم باعدادها وترجمتها واقتباسها لجنة من الجامعيّين المتخصّصين في هذا المجال باشراف النّاشر

- أليس في بلاد العجائب — لويس كارول
- جزيرة الكنز — ر . ل . ستيفنسون
- تاجر البندقية — شارل شكسبير
- جلفر — جوناثان سويفت
- روبنسون كروزو — ر ل. ستيفنسون
- قصة مدينتين — تشارلز ديكنز
- تاراس بولبا بطل القوزاق — نيقولا غوغول
- مرتفعات وذرينغ ـ الحزن العميق — شارلوت برونتي
- ذهب مع الريح — مرغريت ميتشل
- الأرض الطيبة — بيرل باك
- جين إير — شارلوت برونتي
- دايفيد كوبرفيلد — شارلز ديكنز
- روبن هود — عن ولت ديزني ـ ميشال وست

اني اعني للتعبير عن الحق
والجمال بالآلام والعقل

**« الزهرةُ تنبعثُ أحياناً من الصخرِ ،**
**فهذا هُو بصيصُ الأملِ في الليالي المُظلمة »**

* * *

جاءَ فصلُ الشتاءِ ببردهِ القارسِ وأمطارهِ الغزيرةِ . إنه سيّدُ الموقفِ الآن . لا أحد يجروء على تركِ البيتِ لحظةً واحدةً . بدأ كلُّ فردٍ من أفرادِ عائلةِ « ريد » يبحثُ عن الدفءِ والطمأنينة بين ضُلوعِ بيتِ خالةِ « جين » اليتيمةِ . إنها مسرورةٌ جداً في هذهِ اللحظاتِ بالذات .. لن تذهبَ هذهِ المرة مع أولادِ خالتها إلى الحديقةِ المجاورةِ للقيامِ بنزهةٍ . لأنها لا تحبُ التنزه بصحبتهم . ثمَّ ، إنها تميلُ منذُ طفولتها

نحوَ العزلةِ والإنفرادِ ، كانَ القدرَ أرادَ ذلكَ رغمَ أنفها.. يوم حرمها دفعةً واحدةً من حنانِ الأمِ ورعايةِ الأبِ !.. ولم يكتفِ بهذا القدرِ من الحرمانِ.. بل جعلها ضعيفةَ الجسمِ ، غير قادرةٍ على مجاراةِ أولاد خالتها في نزهاتهم الطويلةِ المرهقةِ . فكم حاولتْ أيامَ الصيفِ مرافقتهم ولكنْ بدونِ جدوى .. إن جسمها النحيلَ عاجزٌ عن متابعةِ مثلِ هذهِ المهمةِ الشاقةِ ... حاولت مرةً قهر ضعفها .. لكنها لم تفلحْ ، فكانَ نصيبها السخريةَ والإزدراءَ [1] .

لم تشعر « جين » بالمحبةِ والألفة تجاهَ أولاد خالتها ، وحتى تجاه خالتها بالذات . بالطبعِ ، كانتْ تدركُ بأن « جون وإليزا وجورجيانا » ، يكنّون لها أيضاً ، نفس الشعور السلبي ، لا بل يحقدون عليها ويتمنون لها الأذى والعذاب .. لا يدعونها أبداً تشاركهم في ألعابهم المسليةَ . لذا ، لفّها عنكبوتُ العزلةِ بخيوطهِ المزعجةِ وبدتْ لها الحياة كئيبةً رتيبةً في هذا البيتِ الباردِ

(١) الاحتقار



الذي تحكمه خالةٌ ظالمةٌ حاقدةٌ . وكم مرةٍ إلتجأتْ إلى زاويةٍ مظلمةٍ في غرفةٍ مجاورةٍ وهي تتأملهم وهم يلعبون فرحين مغتبطينَ وتحدثُ نفسها بحزنٍ عميقٍ :

« لا أحبُ العيشَ في غِتْسهِدْهُول [1] » إني أكادُ أن أموتَ من شدةِ العزلةِ . هذه الوحشةُ تقتلني ، ولكنني مجبرةٌ على العيشِ في هذا المكانِ المقيتِ .. لأني يتيمةٌ : ماتَ أبي وأمي وأنا لم أزلْ طفلةً رضيعةً . وهذه هي عائلتي الوحيدة .. ولا أعرفُ سواها . يا ربّ .. ما لي سواكَ في هذه الدنيا.. متى تخلّصني من هذا السجن البغيض ؟ ماذا فعلتُ حتى تحرمني من عطفِ أمي وحمايةِ أبي ؟! »

هكذا ، يقضي أولادُ خالتها أيام الشتاء في غرفةِ الجلوس إلى جانبِ أمهم .. أما هي فلا يحقُ لها دخول هذه الغرفةِ إطلاقاً . ما العملُ ؟ لِمَ لا تذهبُ إلى غرفة المكتبة ؟ ستجدُ هناك المتعةَ والسلام . وصدق من قال :

(١) ( غتسهد ) Gateshead Hall مدينة في انكلترا ، يتجاوز عدد سكانها المئة الف نسمة ، مشهورة بالإنشاءات البحرية والميكانيكية، ومشهورة ايضاً بصناعة الورق على مختلف انواعه

«وخيرُ جليسٍ في الأنام كتابُ» مع أن الكتبَ الموجودةَ
في هـذه الغرفة مخصصةٌ للكبار فقط .. واختارتْ
كتاباً شيقاً يتحدثُ عن الأراضي البعيدةِ والأصقاعِ
الساحرة الغريبة والمزوَّدةِ بالصورِ الرائعةِ المدهشة .
وجدتْ في هذا الكتاب الجميلِ ضالَّتها المنشودة. وجلستْ
على كرسيٍ قديمٍ في زاويةٍ هادئةٍ وبدأتْ تطالعهُ بشغفٍ
عظيم واهتمام بالغٍ . ما أسعدَ هذه اللحظاتِ التي تقضيها
الآن.. وهي تحلِّقُ فرحةً على أجنحة خيالِ الكاتبِ...
حبذا لو يتحولُ حلمها إلى حقيقةٍ ، ولكن لم يدمْ حلمها
طويلاً . فجاةً فتحَ البابُ وظهرَ « جون ريد » وتتبعه
إليزا وجورجيانا .

صاح بلهجةِ الغاضبِ الحاقدِ :

ــ أينَ أنتِ ؟ ماذا تفعلين ؟ هيَّا تعالي فوراً !

إنتابتهـــا رعشةٌ من الدهشة والقلق. ابتعدتْ على
مهلٍ.. عن كرسيها . بدتْ علائمُ الخوف واضحةً على
قسماتِ وجهها إنها تخافُ من « ريد » لأنه ضخمُ الجثة
ويناهزُ الرابعة عشرة من العمرِ بينما « جين » في العاشرة



من عمرها . إنه طويلُ القامة وسمينٌ جداً .. ويرجعُ
سبب ذلكَ إلى اهتمام أُمـه به بشكلٍ مبالغٍ ، إذ يقضي
نهاره وليله جالساً إلى طاولة الطعامِ . إنه الإبن المفضلَ
لدى أمه الحنون . أجل ، كانت تخصُّ هذا الصبيَ السمين
بالعطف والعناية.. وهو في نظرها الإبنُ المثاليُّ والشخص
النبيه .. الذي لا يخطىء ولو مرةً واحدةً في حياته .
لقد ماتَ والدهُ منذُ زمنٍ طويلٍ .. وهـذا ما جعله
يتصرفُ على هواهُ.. ولا يبالي بامور اللياقة والتهذيب..
بل تجد أُمهُ في خشونة تصرُّفاته ،نعومةً ، وفي قساوة
ألفاظه ، لياقةً ورشاقةً . لا عجبَ إن لم يعرفْ قلبهُ
المحبةَ على الإطلاق . إنه يكرهُ « جين » أشدَّ الكراهية
ويلذُ له تعذيبها بقدرِ الإمكانِ وبشتى الطرق والأساليب.
وكلما صادفهـــا في الممشى أو في الدار أو على الشرفة ..
حيَّاها بضربةٍ موجعةٍ ووجهَ إليها الكلام الجارح بدون
رحمةٍ أو شفقة . لذلك تاهبتْ « جين » في هذه اللحظة
لاستقبال هذا الهجومِ المالوفِ الذي تباركه أمه وتلعنهُ
السماءُ ! بالفعل ، إقتربَ منها ولطمها بعنفٍ ، فسقطتْ
أرضاً من شدة الضربة، وصاح كالثورِ الهائجِ :

- ماذا كنتِ تفعلينَ هنا ؟

أجابتْ بهدوء :

- كنتُ أقرأُ هذا الكتابَ .

- هل كنتِ تقرأينَ كتاباً يخصُّ كتبَ أمي ؟

مدَّتْ يدهــا المرتجفةَ لتعطيهِ الكتابَ وقالتَ مرتبكةً :

- أ ... أجل .

قالَ بلهجة الآمر الساخر :

- لا يحقُّ لك قراءةَ كتبِ العائلة . أنتِ يتيمةٌ . ماتَ أبوكِ وأمك ، ثم أنتِ فقيرةٌ ، لا تملكين شروى نقير[١] . ليسَ لديكِ أقارب سوى أفراد هذه العائلة . لهذا السبب ، تعيشين معنا الآن . ولكنكِ لستِ واحدة من أفراد عائلتنا ... واعلمي بأننا لا نحبكِ .

وبسرعةٍ خاطفةٍ ، قذف بالكتاب الغليظ ، لكنها لم تتحركْ من مكانها على الفور .. فاصابها على أمّ رأسها. وللمرةِ الأولى ، أحستْ « جين »بالغضبِ الشديدِ يجتاح

(١) أي لا تملك شيئاً .



كيانها برُمَّتِهِ. في هذه اللحظةِ بالذات، نسيتْ وَحدتَها وتعاستها في غتسهدْ هولْ . صرختْ بأعلى صوتها وقد سيطرتْ عليها نبرةٌ مرتجفةٌ من الغضبِ والتمرد :

- أيها الولدُ الشريرُ !

أصيبَ « جون ريد» بدهشةٍ بالغةٍ بخاصة لما شاهدها وهي تصرخ بدون خَجلٍ أو خوف .

صاحَ مُغتاظا :

- ماذا تقولينَ ؟! هل سمعتما ما تفوهتْ به يا إليزا وجورجيانا ؟ إني ذاهبٌ الآن .. على الفورِ .. إلى غرفة الجلوسِ ، سأخبر والدتي حالاً .

واتَّجهَ مرةً ثانيةً نحوَ جين ، ورفعَ يده لتوجيه ضربةٍ قاسيةٍ على وجهها .. لكنها عاجلتة بضربةٍ قويةٍ. إنها معركتها الأولى والأخيرة ، فيما يبدو . ثم هجمتِ عليه وأخذتْ تشدُّه من شعره وهي تصرخ ملتــاعة كالمجنونةِ :

- أنتَ ولدٌ شريرٌ ! إني أكرهكَ !

ولفظتْ هذهِ الكلماتِ بصورةٍ لا واعيةٍ . وبعدَ لحظاتٍ معدودةٍ وصلت «مسز ريد» مسرعة وبصحبتها الخادمةُ «بسِّي» ، وانتشلتا «جون» من بين يدي «جين» .. بعدَ جهدٍ جهيدٍ !

عندها ، قالتْ الخالةُ للخادمةِ بلهجةٍ باردةٍ :

ـ خُذيها إلى الغرفةِ الحمراءِ واقفلي عليها الباب .

إتجهتْ جين على الفورِ نحو بابِ الغرفةِ الحمراءِ الموجودةِ في الطابق الأعلى ، إلتفتتْ اليها الخادمةُ «بِسِّي» وقالتْ معاتبةً :

ـ يا للهولِ ! ما الذي جعلك تتصرفينَ هكذا مع جون ؟! مع العلم بأنَّ مسز ريد إمرأةٌ لطيفةٌ جـداً وتعاملكِ أحسنَ المعاملةِ ، لقد سمحتْ لكِ بالعيش في دارها . هل نسيتِ ذلك ؟ لا أدري ما الذي دفعكِ إلى القيام بمثلِ هذا العملِ المخجل . لم تقترفي مثلَ هـذا الذنبِ قبلاً .. عملكِ هذا ، مثيرٌ للدهشةِ حقاً ، أنتِ فتاةٌ شريرةٌ !



«خـُذيها إلى الغرفة الحمراء» .. هذه الكلمات التي لفظتها «مسز ريد» أثارتْ في نفس «جين» الخوفَ والقلق . ولم تَتردَّدْ «بسِّي» في تنفيذ الأوامر . بلْ أدخلتها إلى هذه الغرفة المنعزلةِ ثم تركتها هناك وحيدةً خائفةً ، وأقفلتْ البابَ جيداً . وعندماذهبتْ «بسِّي» أخذتْ تتأملُ الغرفةَ . إنها غرفةُ نومٍ . إنما يبدو بأنها مهجورةٌ منذُ أمدٍ طويلٍ . كانتْ تخصُّ عمها المتوفى رحمه الله . لقد تركَ الدنيا وهمومها منذُ تسع سنواتٍ تقريباً ، لا يزورُ هذه الغرفة الموحشة ، سوى الخادمة. إنها واسعةٌ وباردةٌ . يبدو السريرُ كبيراً جداً وكذلكَ الكراسي. وبقيتْ في المكان حيثُ تركتها بسِّي، لا تجرؤُ على التحرك. إستَبدَّ بها الخوفُ والحيرةُ.. إذ خطرتْ ببالها في هذه اللحظات الحرجة ، قصصُ الأشباح التي سردتها لها «بسِّي» فيما مضى .

قالتْ لها يوما : «غالبـاً ما يعودُ المَيـْتُ[1] إلى

(١) الميت اي الحي الذي مات وانتهى. والميت هو الحي الذي سيموت.

داره ، بخـــاصة إذا لم يتمـتَّع قبلا بحياةٍ سعيدةٍ »[1].
عندها ، بدأت تفكر بتعاستها وعزلتها في بيت خالتها الظالمة ..

وانهمرت الدموع الحارة من مقلتيها بكت لأنها يئست من العيش بين أشخاص لا يضمرون لها سوى الكراهية والإحتقار . وأيقنت بأنها مخلوقة تعيسة منذ ولادتها ، وقد كتب لها الشقاء والعذاب وقضاء العمر في الحرمان والقهر . وكانت تحدث نفسها يائسة : «أجل .. إني مخلوقة تعيسة منذ ولادتي . ما أحبني أحد في هذه الدنيا . أنا واثقة من ذلك .. ولن يحبني أحد » .

كلما اشتد الظلام كلما اشتدت مخاوفها وازداد أمرها سوءاً . حاولت ترك الكرسي ، لكنها لم تملك الشجاعة الكافية للقيام بهذا العمل . فجاةً ، ظهر أمامها قبس من نور .. على الحائط .. المقابل لها ، هل هـــذا نور القمر ؟ كلا. إنه قريب جداً . ما هذا يا ترى؟ تضاعفت

(١) وقصة الاشباح وعودتها بعد الموت . هي قصة خرافية بحتة .. لاتستند الى حقيقة علمية .



سرعة نبضات قلبها الواهي الصغير . تسمرت في مكانها ، نظرت إلى النور القريب مشدوهة جـامدة ، من شدة الصدمة . لقد سبَّب لها هـــذا الظهور الفجائي للنور الخفي ، رعباً لا يوصف . صرخت مذعورة ثم اتجهت مسرعةً نحو باب الغرفة ، حاولت أن تفتحه ولكن بلا جدوى ، لقد كان الباب مقفلا من الخارج ... وأخيراً سمعت صوت بسِّي وهي تقول مندهشة :

ـ ما الخبر ؟ هل أنتِ مريضة ؟

ثم فتحت الباب قليلاً ، عندها ، صرخت « جين » كأنها تطلب الإستغاثة خوفاً من الغرق بين أمواج هذا اللجّ من الظلام الدامس :

ـ أرجوكِ .. أرجوكِ ... يجب أن اخرج من هذا المكان المرعب ... وإلاَّ سأموت هنا بعد قليل .

سألتها بسِّي مستغربة :

ـ لماذا ؟ أأنتِ مريضة ؟

صاحت مرة ثانية متوسلة :

ـ رأيت نوراً في الظلام وشاهدت شبحاً وهو يدخل ،

أواهُ يا بسي .. أرجوكِ أرجوكِ ، خلّصيني من هذا العذاب .

وفجأة ، دوّى صوتُ الخالة « مسز ريد » من الغرفة المجاورة :

ـ ما هذا الضجيج ؟!

أجابت بسي مرتبكة :

ـ إنها تجهش بالبكاء [1] . أعتقد بأنها مريضة .

كان جواب الخالة الظالمة ، قاطعاً كحدّ السيف ، لم تتأثر بكلام الخادمة ، بل قالت بنبرة جافة :

ـ يجب أن تعود إلى هذه الغرفة فوراً .

وصمتت لحظة ثم صاحت غاضبة :

ـ لم أشاهد في حياتي فتاة شقية وشريرة كهذه الفتاة ! يا للتعاسة !

وسيطرَ اليأسُ على جبين المسكينة، المرتجفة كوريقة الخريف في مهب الريح ، التفتت إلى خالتها وقالت باكية متوسلة :

(١) اي تبكي بصوت عال وبمرارة .



ـ آه يا خالتي .. أرجوكِ .. سامحيني . سأموت حتماً في هذه الغرفة المظلمة . سامحيني . أرجوكِ .

لكنها صرخت في وجهها حانقةً وقالت :

ـ أُصمتي أيتها الشريرة !

ثم دفعتها بقوةٍ إلى داخل الغرفة الباردة كبرودة الموت ! ولفّها الظلامُ من كل جانبٍ ثم غابت عن وعيها تماماً كما تبتلع الأمواجُ الهائجة مركباً محطماً وتقذفه بعنفٍ إلى شاطيء مهجور .. فيتحول بعد هذه المسيرة المرهقة إلى أشلاءٍ تائهةٍ .. مبعثرةٍ .

بعد هذه الحادثة المؤلمة ، وجدت نفسها نائمةً على سريرها الخاص وأحست بيد بشرية وهي تلامسها بعطف وحنانٍ . هل هذا كابوسٌ ؟ هل هي تحلم ؟ من جاء بها إلى سريرها الصغير الدافىء وخلصها من هذه الغرفة الواسعة .. المخيفة ؟ إنها تسمعُ أصواتاً ، كأنها تنبعث من مكان بعيد جداً .

رويداً رويداً .. بدأت الصور تتوضح أمام عينيها. وقعَ بصرها في الوهلة الأولى على الخادمة بسي .. وإلى

جانبها يقف رجلٌ غريبٌ إستطاعت أخيراً أن تتعرف عليه . إنه الدكتور لِيود ... الذي يقصد بيت خالتي عندما تمرض إحدى الخادمات . إبتسمت جين إبتسامة صفراء إذ تذكرت في هذه اللحظة بان هـذا الطبيب طبيبُ السريرة ولطيفٌ للغاية . لن يتهجم عليها ولن يسخرَ منها شان هؤلاء الحاقدين من أفراد هـذه العائلة البغيضة . بل بالعكس نظر إليها باهتمام ثم ابتسامة أبوية ، دنا منها وجلس بقربها ، على حافة السرير . عندها ، شعرت جين بالإطمئنان وتمنت لو يتحلى جميع الأشخاص الذين تصادفهم مثل هـذه الصفات الإنسانية النبيلة التي يتحلى بها الدكتور لِيُودْ . طرحَ عليها بعض الأسئلة فكانت تصغي إليه باهتمام بالغ وتجيب عن كل سؤالٍ بسهولة فائقة . بعد ذلك ، قال الدكتور ليودْ :

ـ حسناً يا جين . لا داعي للخوف . أعتقدُ بانك ستشفين في القريب العاجل . يجب أن أذهب الآن سأرجع غداً صباحاً .. إن شاء الله .

ثم التفتَ إلى بسي وقال لها بهدوءٍ :



ـ بسي .. يجب أن تنام الطفلة الآن .. إلى اللقاء غداً .

غمرَ الفرحُ قلب « جين » الصغير .. ولكن لمدةٍ وجيزة . بعد انصراف الطبيب ، زارها الحزن من جديدٍ وبدأت تشعرُ بالخوف من الغرفة الواسعة المظلمة .. لكن بِسي .. ظلت واقفة بقربها وهي ترمقها بنظرات ملؤها الحنان والرأفة .. مما أدهش جين أيما دهشة .. هل هي تحلم ؟ لكن بسي اقتربت منها ، وبدأت تحدثها بلطفٍ ومودة .

هذا غريبٌ وهذا أمرٌ مستحيلٌ . إنها تسمع كلاماً لطيفاً يصدر من بيت خالتها الظالمة! هل هذا معقول ؟! إنه أمرٌ غير عادي حقاً . رغم هـذا الكلام المعسول ، ظلت الكآبة ترفرف فوق رأسها وظلت نفسها حزينة وقلقةً أشد القلق . سالت بسي باستغراب :

ـ من الذي حملني إلى سريري الصغير ؟ ومتى ؟

قالت بسي بلطفٍ :

ـ أنتِ مريضةٌ الآن .. لأنك بكيتِ كثيراً في

الغرفة الباردة . ولكني متأكدةٌ بأنك ستشفين عاجلاً كما
قال الطبيبُ . الآن ، كوني فتاةً عاقلةً وحـاولي
أن تنامي .

لكنها لم تنمْ إلاّ قليلاً أثناءَ الليـل ، تذكرت وهي
نائمة ما حدثَ لها في هـذه الغرفة المرعبة .. لقـد
رأتْ شيئاً ما ، يقتربُ منها .. لونه أبيض .. ثم أختفى
بسرعة البرق .. وكان يرافقهُ كلبٌ كبير أسود ..
وبدأت ترتجفُ كالورقة الذابلة في فصل الخريف ..وربما
بسبب هـذا الخوف الشديد .. أصابها هـذا المرض
وأقعدها الفراشَ رغمَ أنفها ، وهل بوسعها بعد ذلك ،
التغاضي عن عمل خالتها القاسي ؟

كلا. لن تغفر لخالتها مثل هذا الظلمِ الوحشي. لولاها
لما كانتْ عرضةً للخوف والتعاسة والعزلة الكاملة ! يجبُ
أن تغفر لها يوماً ما ، ولكنها تشعر في هـذه اللحظة
بالذات بأنها غيرُ قادرةٍ على محو هذه الآثار الكئيبة من
ذاكراتها



في اليوم التالي، إرتدتْ ثيابها بمساعدة بسي وتركت
الفراش نزولاً عند رغبة الطبيب . كانتْ تشعر بالحزن
العميق ومـا زالَ الوهنُ يسيطرُ على جسمها النحيل
الصغير . وظلت بسّي تعاملها بلطفٍ ومحبةٍ . جاءتها
ببعض الكتبِ الشيقة للمطالعة .. وكانت تنشدُ لها بعض
الأغاني المفرحة .. وكانت تخصها بالطعام الجيد . ولكن،
ما زال الحزنُ زائرها الأليف ومـا زال اليأس السيد
المسيطر على مشاعرها بكاملها . لذلك ، لم تجدْ إنفرجاً
لحالتها التعيسة إلاّ بالبكاءِ المرير .

في اليوم التالي ، زارها الدكتور ليود، طلب منها
أن ترافقه في نزهةٍ قصيرةٍ . أرادَ أن يعرف سبب
مرضها ، لكنها لم توضحْ له الأمر، بل حدثته عن ظهور
الشبحِ في الغرفة المظلمة . لكنهُ ضحكَ ساخراً وقال :

ـ يا للسخافة ! أنتِ فتاةٌ ذكيةٌ وتعتقدين بمثل هذه
القصص السخيفة! لا توجدُ أشباحٌ إلا في مخيلة الإنسان..
لا أكثر ولا أقلَ . لكنها حاولتْ أن تؤكد له صحة
قولها ، فقالتْ بلهجة الواثقة من نفسها :

- لكني رأيتُ شبحَ مستر ريد ! لقد مات مستر ريد في هذه الغرفة بالذات . لا يجرؤُ أحدٌ على دخول هذه الغرفة الحمراء بمفرده .. حتى مسز ريد بذاتها ! لقد دبَّ الرعبُ في قلبي بخاصة عندما أقفلتْ بسّي الباب من الخارج ، ولن أنسى مثلَ هذا العمل.. طِيلَ عمري. لا ... لن أستطيع .

ثمَّ ، شرعتْ تحدثُ دكتور ليودْ عن همومها ومخاوفها العديدة .. عن عزلتها الحزينة في « غتْسهدْهول » . عن خالتها وأولادها الأشرار الذين يكنّون لها السوءَ والإحتقار .. وأخبرته بأنها تشعر بالحزن الدائم لأنها يتيمةٌ .. تحتاجُ إلى حنان الأم ورعاية الأب .

بالفعل ، إنها تشعر بالغربة في هذا المنزل الذي شاءَ القدرُ أن يعلمها أبجدية الحزنِ والعزلة والكآبة . وصدق من قال : « ما قيمةُ البيتِ بدون الأم ؟ » .. وما العمل إذا نشأتْ محرومةً من الأم والأب في آنٍ واحدٍ ؟! أمرُها لله ! « إن الله على كل شيءٍ شهيدٌ » سألها الطبيب:



- هل لديكِ أقاربُ غير هذه العائلة ؟

أجابتْ جين :

- أخبرتني مرةً مسزْ ريد ، عن عائلةٍ « آيرْز » إنها عائلةُ والدي ، لكنها لا تعرفُ العنوانَ ، ثم قالت لي بأن عائلة والدي فقيرةٌ جداً وليس بمقدورها رعاية طفلةٍ يتيمةٍ بأي شكل من الأشكال .

فكرَ الطبيبُ ملياً ثم سألها بلهجةٍ أبويةٍ :

- أتحبين الذهابَ إلى المدرسة ؟

تعلمُ جين بأن « جون ريد » يكرهُ المدرسة وتدرك أيضاً بأن الذهاب إليها هو الخلاص من جهنم « غِتْسهدْهول » راقتْ لها هذه الفكرة وأجابتْ على الفور بشغفٍ ظاهرٍ :

- أجل . إني أحبُّ الذهاب إلى المدرسة ..

قال الدكتور ليود مطمئناً :

- حسناً . لي حديثٌ الآن مع خالتك حول هذا الموضوع . الى اللقاء يا جين .

وجرتْ الرياحُ بما تشتهي السفن ... أخبرتها بسّي

بأنَّ خالتها قد وافقتْ على رأيْ الدكتور ليود وأخبرتها أيضاً عن والديها . كان والدُهـا كاهنَ الرعية ، فقير الحال ، يسكنُ قريةً صغيرةً ويهتمُ بأمور كنيسة صغيرة. أما أُمها ، فاراد أهلها أن تتزوجَ رجلاً غنياً .. لـكنها تزوجت والدها .. الفقير والبائس ، فغضبَ أهلها أشد الغضب ووصلِ الأمر بهم حتى درجة القطيعة . ومات الوالدُ المسكينِ بعد سنة تقريباً من تاريخ زواجها ... فارقَ الحياة يوم رأت عيناها النور ! أبٌ يودِّعُ الدنيا فقيرَ الحال وطفلةٌ تستقبلُ الدنيا بالعويل والبكاء . ولم يمض وقتٌ طويل ،حتى تبعته أُمها إلى دار المقر الأخير.

ولما انتهت بسّي من سردِ هـذه القصةِ الحزينة ، قالت لجين بصوتٍ خفيضٍ :

ـ مسكينةٌ جين ! إنها لقصةٌ محزنةٌ حقاً ! إنما .. يجبُ أن تكوني لطيفةً مع عائلة خالتك . لقد عاملوكِ أفضلَ معاملةَ وأحسنها ، أليسَ كذلكَ ؟



ومضتْ عدةُ أسابيع بعدَ هـذا اللقاء مع الدكتور ليودْ ولم يذكرْ أحدٌ موضوعَ المدرسة . فاعتقدتْ بأن خالتها قد نسيتْ تماماً هذا الأمر . وبدأتْ تعيشُ هـذه المرة ، في عزلةٍ تامةٍ . لا يعاشرهـا أي فردٍ من أفراد العائلة . بل نبذوها وعاملوها كأنهـا قطةٌ جرباء . لم يوجهوا إليها الكلامَ ولم يلعبوا معها ولو مرةً واحدة . فكانتْ تتناولُ الطعامَ بمفردها وكانت تنامْ في غرفةٍ منفردةٍ . حاولَ مرةً جون ريدْ أن يدنو منها . فاستبد بها الغضبُ وحاولتْ أن تلقنهُ درساً لا ينساهُ .. لكنه ابتعدَ على الفور خائفاً .. إذْ أدركَ بأنها قد تغيّرتْ كثيراً ولم تعدْ هـذه الفتاةُ اليتيمةُ الخجولة التي تتلقى الضربة تلو الضربة صامتة باكية .

مضتْ أربعة شهور تقريباً .. ولم يحدثْ أيُّ شيءٍ يذكر بشأن المدرسة ... إلى أن جاءتْ يوماً بسّي إلى

غرفتها وقالتْ لها :

ـ تطلبُ منكِ مس ريد الحضور إلى غرفة الجلوسِ حالاً .

شعرتْ جين بالخوف ، لكنها مضطرةٌ إلى تلبية هذا الأمر بدون تردُد . فاتجهتْ مسرعةً نحو الطابق الارضي ، وما أن فتحت باب الغرفة حتى سمعتْ خالتها وهي تقولُ بصوتٍ عالٍ :

ـ هذه هي الفتاة التي حدثتكم عنها في الرسالة .

تأملّتْ جين الرجلَ الغريبَ بدهشةٍ بالغةٍ . إنه طويل القامة ، يرتدي الثوب الأسودَ يقفُ قرب الموقدَ كالجندي الذي يتأهبُ لتنفيذ أوامر قائده . تظهرُ على وجههِ علائم الجد والرصانة . لم يبتسمْ إطلاقاً خلال المحادثة التي جرت بينه وبين خالتها مِسز ريدْ .

إلتفتَ إلى جينُ ثم قالَ :

ـ إنها صغيرةٌ جداً . كم هو عمرها ؟

أجابتْ خالتها :

ـ إنها في العاشرة من العمر يا مستر «برُوكلهرستْ» .



قالَ مستغرباً :

ـ حقاً ؟! إنها تبدوُ أصغر من سنها !

ثم التفتَ إلى جين وقال :

ـ ما هو إسمك ؟

أجابتْ :

ـ جين آيرْ يا سيدي .

ثم قالَ :

ـ هل أنتِ فتاةٌ عاقلة ؟

أجابتْ الخالةُ :

ـ لقد حدّثتكم عنها في الرسالة يا مستر بروكلهرست. لا داعي للقول مرةً ثانيةً بانها فتاةٌ شريرة !

قال الشخصُ الغريبُ لجين :

ـ تعالي أيتها الفتاةُ الصغيرة .

واقتربتِ منه حزينةً يائسةً ، وبدأ يحدثها لمدة عشر دقائق ، عن الأولاد الأشرار وعن عذاب جهنم . ثم قال بأن جميع الأولاد الأشرار يذهبون إلى هذا المكان المخيف .. بعد موتهم . عندها ، شعرت بالخوف الشديد

وبدأت تتخيلُ من جديد صورَ الرعب التي سيطرت على مخيلتها يوم كانت سجينة الغرفة الحمراء المظلمة .

ثم سألها مستر بروكلهرستْ بلهجةٍ باردة .

– أتريدينَ الذهابَ إلى جهنم .. بعد موتك ؟

وللمرة الثانية ، أجابت الخالةُ .. قبل أن تنطق جين بحرفٍ واحدٍ ، قالت بنبرةٍ جافةٍ :

– إن جين آيرْ فتاةٌ شريرةٌ ، أوريد أن تذهب إلى مدرستكم في « لوودْ » . وأتمنى أن تصبحَ فتاةً صالحةً .

وشعرتْ جين بالكراهية الشديدة تجاه خالتها الظالمة التي تنعتها دائماً بالفتاة الشريرة ، لا يحقُّ لها أن تتحدث عنها بهذه الطريقة الخبيثة وأمام شخص غريب بوجهٍ خاص ! وكانت تحدِّثُ نفسها بغضبٍ وتحسرٍ : « حتماً ، سيعتبرني مستر « بروكلهرست » فتاة شريرة .. للأبد . لن أستطيعَ تغيير رأيه إطلاقاً » .

لذلك ، عندما تركتْ بيتَ خالتها ، لم تحملْ بين ضلوعها سوى الكراهية والتصميم الجازم بعـــدم العودة



إلى هذا المنزل البغيض. إنهُ رحيلٌ بدون عودة، وقررت جين في قرارة نفسها تجاهلَ إسم خالتها أمام الطالبات ، وسوفَ تصرحُ أمامهن بأنها لا تخصُ أية خالةٍ ولا تعرف أيَّ شخصٍ يعرفُ باسم « ريد » !

خرجتْ جين إلى الحديقةِ بعد أن رحلَ هــذا الرجــلُ الغريبُ · وبقيت هناكَ تتأمل الأشجار والأزهار بعينين شاردتين .. إذْ ما تزالُ عبارة « هذه فتاةٌ شريرةٌ » ، تخطر ببالها أينما ذهبت وحلّتْ وما يزال شبحُ الحزن والعزلة يلاحقهــا كأنه أنيسها الوحيد في الحلُّ والترحال .

رأتها بسّــي في الحديقة ، دنتْ منها وقالتْ معاتبةً وبصوتٍ عالٍ :

ـ هيّــا ! ادخلي إلى البيتِ بسرعةٍ . ستمرضينَ مرةً أخرى إذا بقيتِ هكذا .. خارج الغرفة .

يبدو بأن كلمات الخالة الحاقدة ، طغتْ على جَوابِ الخادمة ·· فلم تهتم جين بنداءِ بسّــي .. بل ظلت جامدةً في مكانها .. كأن شيئاً لم يكنْ . وبعد لحظاتٍ معدودةٍ إلتفتتْ جين إلى بسّــي وقالت لها بلطفٍ ومودةٍ :



ـ أرجوكِ يا بسّـي .. لا تغضبي عليَّ .

وللمرة الأولى في حياتها ، تحيطُ بيديها الصغيرتين عنق الخــادمة الصبية . شعرت بسّــي بالفرح الجزيل ، فقالت لها :

ـ أنتِ فتاةٌ غريبةُ الأطوار . علمتُ بأنك ذاهبةٌ بعيداً .. إلى المدرسة . ألم تشعري بالحزنِ .. لأنكِ تبتعدينَ عن بسّـي المسكينة ؟

أجابتْ جين :

ـ إنكِ غير مكترثةٍ بي (١) ، لا بلْ تَصبّين دائماً غضبك عليَّ .

قالت بسّـي :

ـ كلا يا جين . إسمعي ما أقولهُ لك الآن : عندما تذهبينَ إلى المدرسة .. تعلمي الشجاعة . لا تكوني هادئةً وجامدةً على الدوام . إذا كنتِ هادئةً بصورةٍ دائمةٍ .. يعتقد الآخرون بأنك جبانةٌ . لا يعرف النــاس بأنك قويةٌ في الأصل . إنهم يحـكمون عليكِ حسبَ مظهركِ

(١) لا تبالين بي .

الخارجي ، وسأعدك بأني لن اغضب عليك من الآن فصاعداً .. حتى ساعة رحيلك من غتسهد هول .

قالت جين :

ـ آه يا بسي .. لن أخاف منك بعد الآن . لكنني خائفة جداً، من هؤلاء الأشخاص الغرباء الذين ساصادفهم هناك .. في مدرسة « لوود »(١) .

قالت بسي :

ـ لا داعي للخوف يا جـين عندما تخافين منهم ، يحتقرونك . يحب الناس الشخص الشجاع ، هيا ندخل الآن إلى غرفة الطعام . لقـد حضرت لك خبزاً خاصاً بالشاي .

وضعت بسي يدها بحنان على كتف « جـين » وذهبا سوية إلى الدار . للمرة الأولى في حياتها ، شعرت جين بالسعادة تغمر كيانها برمته.. شعرت بها في الوقت الذي قررت الخالة إرسالها إلى المدرسة.. إلى مكان بعيد.. حتماً سيكون هذا الذهاب بدون إياب !.

---

(١) Lowood Scholo



أحبت جين المدرسة قبل أن تتعرف عليها .. أحبتها فقط للتخلص من هـذا الكابوس الذي يطأ أصابعه الثقيلة على صدرها الصغير ولسان حالها يقول : « عندما لا نملك ما نحب ، يجب أن نحب ما نملك » .

* * *

مع طلوع الفجر ، إرتحلت جـين إلى مدرستها الجديدة .. كان رحيلاً جافاً .. بلا وداع وبلا دموع . عاشت في بيت خالتها في عزلة تامة وارتحلت عنه بمفردها وفي صمت تام . بسي فقط تمنت لها التوفيق .

وصل الحوذي في الوقت المحدد .. هكذا استقلت عربة قديمة ، يجرها حصانان ، واتجهت أخيراً نحو مصيرها المجهول مفعمة بالأمل والرجاء رغم ما عانته من عذاب وحرمان واضطهاد . واستمر الرحيل ، منذ الصباح الباكر حتى ساعة متأخرة من الليل . وما كادت تغمض عينيها ، حتى أيقظها الحوذي .. وسمعت صوت إمرأة عجوز ، وهي تناديها قائلة :

ـ أهذه هي « جين » الفتاة الصغيرة ؟

أجابتْ على الفور وبتلهفٍ :

ـ أجل .

وبسرعةٍ خاطفةٍ إبتعدت عن العربة واتَّجهت بصحبة المرأة نحو بنايةٍ منخفضةٍ وفسيحةٍ . كان الظلامُ مخيِّماً وكانت الامطار تهطل بغزارةٍ ، فتح الخادم البــاب الرئيسي ودخلت جين إلى قاعة الجلوس . لم تكن القاعة جميلة جداً ، لكنها أكثر دفئاً من قاعة دار خالتها مسز ريد وأكثر إلفة ، إنها توحي بالراحة والإطمئنان . بعد لحظاتٍ ، إقتربتْ منها امرأةٌ طويلة القــامة ، شعرها أسود ، تعــلو شفتيها ابتسامةٌ لطيفةٌ ، وعندما وقــعَ بصرها على جين ، قالت لها بلطفٍ :

ـ مرحباً يا صغيرتي ! حتماً أنتِ جين آير ، لقد أرهقكِ هذا السفر الطويل .. نظراً لعمركِ الصغير !.. أنتِ تعبةٌ .. أليس كذلك ؟

أجابتْ باحترامٍ :

ـ أجلْ .. قليلاً .

وتابعت قولها :



ـ إني متاكدةٌ بانك جائعةٌ أيضاً ..

ثمَّ التفتتْ إلى المرأة التي كانت بصحبتها وقالت لها بنبرةٍ آمرة :

ـ دعيها تتناول طعامها قبل أن تذهب إلى فراشها يا مس ميلر (١) .

ثمَّ وجّهتْ كلامها إلى جين :

ـ هل تبتعدين عن والديك للمرة الأولى في حياتك ؟

عندها ، فسَّرتْ جين للمرأة الوقور ، بانها يتيمة الأب والأم وقالت لها :

ـ لا أعرفُ أبي وأمي . لقد فقدتهما وأنا ما أزالُ طفلةً رضيعةً .

عندها قالت السيدة ذاتُ الشعر الأسود .

ـ ستكونين طالبة ناجحة . إني متاكدةٌ من ذلك .

ثم ذهبتْ مع مس ميلر لتناول العشاء ، فاجتازت ممرّاً طويلاً إلى أن وصلت إلى قاعة واسعة ، فكانت هذه القاعة مكتظةً بالطالبات من مختلف الأعمار .. يناهزن

(١) Miss Miller

الثمانين طالبة .. ويلبسنَ جميعهن الزي البني البشع ، وأحذيةً غليظةً ، حتى الفتاة الرائعة الجمال ، كانت تبدو بهذا الزيِّ الكئيب ، غريبة المظهر ، وكل طالبة منهمكةٌ في تحضير درسها لليوم التالي .

فجاةً دوّى صوتٌ في القاعة :

ـ آن وقتُ العشاءِ ، هيّا إلى الطاولة .

عندما وصلَ الطعامُ ، لاحظتْ جين بأنه عبارةٌ عن خبزٍ وماءٍ فقط ، وكانت حصة كل واحدة ، ضئيلة جداً ، لذلك انتهى الأكل بسرعةٍ خاطفةٍ . بعد العشاء ، ذهبن إلى قاعة النوم .

في اليوم التالي ، قرعَ الجرسُ باكراً . استيقظتْ جين من نومها وارتدَتْ زيها بسرعة . في اللحظة بالذات بدأت حياتها الجديدة في مدرسة « لووُودْ » يجبُ أن تستيقظ كل يوم قبل بزوغ الفجر ، كسواها من الطالبات. ثم ، يتجهنْ نحو قاعة الدرس . هناك ، تستقبلهن مس ميلر حيثُ يساعدها ثلاث معلمات للقيام بمهمة التوجيه والتعليم ، ولقد خصصتْ لكلِّ صفٍّ من الصفوف



الأربعة ، معلمةٌ واحدةٌ . ولقد سجل إسم « جين » في الصف الأخير . في الساعة الأولى ، تعلمت الصلاة ثم اتجهت مع رفيقاتها نحو قاعة الطعام لتناول الترويقة. إنها جائعةٌ جداً ومريضةٌ أيضاً . ويرجع سبب مرضها إلى قلة الغذاء . وحاولت أن تأكل ولكن لم تستطع .. اذْ رائحة الطعام الكريهة أجبرتها على التزام الصيام كارهةً ! ويحقُّ للطالبات التحدثَ معاً لمدة ربع ساعة بعد تناول الطعام .. ودارَ الحديثُ بأجمعه .. حول رداءةِ هذهِ الوجبة ورائحتها التي لا تطاق !

عند الساعة التاسعة ، قُرع الجرسُ مرةَ أخرى، إنه موعدُ الدرس الثاني .. حتى الظهيرة ، بعد ذلك، يتّجهن نحو الحديقة لقضاء فترةٍ من الوقت لا تتجاوز الثلاثين دقيقة ، الحديقةُ باردةٌ جداً .. ولا يرتدين سوى المعطف الرقيق الذي يعجز عن حمايتهن من قساوةِ بردِ الشتاءِ القارس .

تاملّتْ جين الحديقةَ وحدّثتْ نفسها : « من الممكن أن تكونَ هذه الحديقةُ جميلةً جداً في فصل

الصيف ، لكنها تبدو الآن ، في فصلِ الشتاء ، رماديةً وكئيبةً » . المطرُ يهطلُ ، بعضُ الفتيات يتجاذبْنَ أطرافَ الحديث في زاويةٍ من الحديقة .. كأنهنَّ يفتشنَ عن الدفءِ والحرارة ، وأغلبُ الطالبات يسعلنَ سعالاً حاداً . وعلمتْ فيما بعد بأن السعالَ هو اللحنُ الشائعُ في مدرسة « لوودْ » رُبَّ طالبة تعاني من داءِ الصدرِ .

ولم تحاولْ جين التحدُّثَ مع أية طالبة حين وصولها إلى المدرسة ، ولكنها شاهدت في الحديقة طالبةً وقد تبدو أكبرهن سناً وقد اتخذت مكاناً لها منعزلاً عن سائر الزميلات ، إنها تطالعُ كتاباً . إتجهتْ جين نحوها وطرحت عليها بدون تكلُّفٍ أو تردُّدٍ عدة أسئلة تتعلقُ بالمدرسة ، فكانت لطيفةً ومهذَّبة ، فاخبرتها بان هذه المدرسة خاصةٌ باليتامى وبالأولاد الفقراء .

ثمَّ قالتْ لها :

ـ من هي هذه السيدةُ التي التقيتُ بها مساءَ أمس ؟ هل هي صاحبة المدرسة ؟



أجابتْ الأخرى :

ـ إنها مِس تِمْبل ، إنها رئيسة المدرسة . للأسف ، ليستْ هي صاحبة المؤسسة . المسئولُ عن المدرسة هو مستر بروكلهرستْ ، إنه كاهنُ الرعيَّة .

قالتْ جين :

ـ إن مس تمبل امرأةٌ طيبةُ القلب.. أليس كذلك ؟ جميع المعلمات لطيفاتٌ ، لكن مس تمبل هي أفضلهن .

ثم تحدَّثت الفتاةُ عن حياتها الخاصة . إنها تدعى هيلين بورنزْ ، وهي طالبةٌ في هذه المدرسة منذُ سنتين تقريباً .. وقد فارقت أُمها الحياةَ وهي ما تزالُ في سنّ الطفولة .

وسالتها جين :

ـ هل أنتِ مسرورةٌ في هذه المدرسة ؟

لم تشأ هيلين هذه المرة الردَّ على هذا السؤال ، بل قالت :

ـ أعتقدُ بأنكِ طرحتِ العدد الكافيَ من الأسئلةِ ،

أرجوكِ يا جين . دعيني وحدي الآن ، أريدُ أن أقرأ .

شعرتْ جين بالسرور ، لأن هيلين حدّثتها بلطفٍ . لكنها شعرتْ بالقلق بشأنها ، إذْ ما توقفت هيلين عن السُّعالِ وهي تحادثها بشأن المدرسة وحياتها الخاصة .

* * *



والحياةُ رتيبةٌ جداً في « لوثوودْ » . كلُّ الأيام تتشابهُ تماماً . رغم ذلكَ ، لم تشعرْ جين بالتعاسة . وكان العيشُ في لوثوود أشد قساوةً ولم تفكرْ جين يوماً ، الرجوعَ إلى غتسهدْهولْ . لاقتْ صعوبةً شديدةً في البداية ، لأنّ الدروسَ جديدةٌ وغريبةٌ بالنسبة لها. انما ، رويداً رويداً ، بدأت تشعر بتحسنٍ ملحوظٍ . ولكن ظلتْ تعاني من مشكلةٍ دائمة : الجوعُ ، وهذه مشكلةٌ عامةٌ ، جميع الطالبات تقريباً يعانيين منها ليلاً نهاراً .

وتوطدّت صداقةٌ متينةٌ بين جين وهيلين بورنز . وكانت هيلين فتاةً شجاعة ، فاكتسبتْ منها هذه الصفةَ الحميدةَ وباتتْ جين الطفلةُ البائسة الشاكية،فتاة طموحة وقادرة على اجتياز المصاعب بصمتٍ وكبرياء . وكانتْ هيلين تعاني من مرضٍ عضال . كانت تسعل بدون انقطاع ، وكانت حالتهـا تزدادُ سوءاً يوماً بعد يوم .

ومع ذلك ، كانت تلتزمُ الصمتَ ولا تذكرُ أمرَ مرضها ولو مرة واحدة ، أمام أية طالبة من طالبات المدرسة . وبالنسبة لجين ، إنها ألطف وأخلص صديقة قد تعرفتْ عليها في حياتها .

وذاتَ يومٍ ، جاء مستر بروكلهرست إلى المدرسة وقصدَ غرفةَ مس تمبلْ . عندما شاهدته جين ، شعرت بالخوف والقلق. إذْ يعلمُ هذا السيد حقيقةَ أمرها بخصوص موقف خالتها العدائي والتي تنعتها « بالفتاة الشريرة » .. وهذا السيدُ مقتنعٌ تمام الإقتناع بأنها شريرةٌ ! ولا شيء يمنعه الآن عن توضيح الأمر للآنسة تمبل ، وبعد ذلك سينتشرُ الخبر بين الطالبات وسينقلبُ الإعجاب من قبل الزميلات إلى إحتقار وسيتحولُ فرحها إلى ترح والصداقة إلى عداوة .

ودفعها الفضولُ إلى اختيار مكان قريبٍ من مستر بروكلهرستْ .. هكذا تستطيعُ أن تستمعَ الى كلامه من غير أن يلحظها . وبدأ يتحدثُ مع مس تمبلْ، لم تعجبه فكرة تبديل الثياب الخفيفة بثياب شتوية جديدة ، ولمَ



يوافقْ كذلكَ على تحسين وجبات الطعام .. ولم تعجبهُ أيضاً الطريقة التي تستعملها بعض الفتيات المراهقات في تسريح شعرهن .. وما شاكلَ هذه الأمور وغيرها ..

وإزاء هذا التهجم العنيف ، لم تحاول مس تمبل تبرير موقفها .. بل لزمتْ الصمتَ وبدتْ كأنها مستعدة لتنفيذ أوامره على الفور وبدون أي تردد . وعند نهاية هذا الحديث ، بدأت ترتجفُ يدي « جين » من شدة الخوف . عندها ، سقطَ الكتابُ أرضاً وأحدث ضجةً مزعجة حقاً ، وفي هذه اللحظة بالذات ، تمنت جين لو اختفتْ تحت الارض وابتلعتها بومضة عين ! يا للعار ! يا للمصيبة !

إلتفتَ إليها السيد بروكلهرست ، ورمقها بنظراتٍ باردة وقاسية ، وصاحَ غاضباً :

ـ أيتها الفتاةُ الشريرةُ ! آه ! هذا انتِ . الفتاة الجديدة ، تعالي ، تقدّمي يا جين آيرْ .

سيطرَ عليها الخوفُ ولم تستطيع أن تتحركَ وبدتْ مشلولةً كالطير المرتجف بين مخالب القطّ ..

ودفعتها طالبةٌ إلى الأمام ، فتقدمت بضعَ خطواتٍ في اتجـاه السيدِ بروكلهرست .. بينما قالت لهـا الآنسة تمبل مطمئنةً :

ـ لا داعي للخوف يا جين، إنها مجرد حادثة طارئة.

عكسَ السيد بروكلهرست ، الذي أشارَ باصبعه إلى كرسي وقالَ آمراً :

ـ اجلسي هناك .

وبعدَ عشرِ دقائق ، أخبرَ المعلماتِ والطالبات كل شيء يتعلقُ بي ، وأضاف :

ـ يجبُ أن تبتعدَ كلُ طالبةٍ عن هذه الفتاة الشرّيرةِ .

وهمَّ بتركِ الغرفة ، فقالَ بصوت عالٍ :

ـ يجبُ أن تجلس جينِ آير نصفَ ساعةٍ على هـذا الكرسي العالي .. ولا أسمح لأحدٍ بالتحدث معها حتى صباحِ غدٍ .

شعرتْ جين بالخجل وتمنت لو تنتهي من هـذا العذاب في هـذه اللحظة بالذات . وحدثتْ نفسها : « كنتُ أتوقع حدوث مثل هذا الأمر . من الآن فصاعداً



ستكرهني كل طالبة » . ولحسن حظها ، التقتْ نظراتها بنظراتِ هيلين التي ابتسمت لها إبتسامةً لطيفةً وكأنها تطلبُ منها الصمودَ والتحلي بالشجاعة .. بخاصة في هذه الفترةِ الحرجةِ .

ولم تترك الكرسيّ العالي إلا بعدَ أن ذهبَ الجميعُ لتناول الشاي . عندها ، إتجهتْ نحو زاويةٍ من الغرفة ، وشرعتْ تبكي كالطفل المقهورِ . عادها[1] من جديدٍ شعور العزلة والتعاسة . وبعـد قليلٍ ، جاءتْ هيلين ودنتْ منها قائلةً :

ـ تعالي يا جين .. يجبُ أن تأكلي شيئاً ما . كفى بكاءً. بعضُ الطالبات لا يؤيدن رأي مستر بروكلهرست.

بعد هذا الكلام اللطيف ، إبتسمتْ جين ابتسامةَ الشفاءِ وأدركتْ أخيراً بأن مستر بروكلهرست ليس إلهاً وليسَ معصوماً عن الخطأ .. بدا لها الآنَ أقلَّ أهميةً .. بخاصة بعدما اقتنعتْ برأي هيلين . إن صديقتها على حقٍ . لم تصدّقْ جميعُ الطالبات كلامه هذا . وبدتْ لها

(١) زارها .

هيلين كالأمل الذي يشعُ فجأةً في حياة الإنسان البائس المحزون .

« الأملُ كنجوم السماء .. تبدو أجملَ وأحسنَ ما تكون عندما تكون السماء أظلمَ وأدكنَ ما تكون » .

تابعتْ هيلين قولها :

ـ أنتِ تعلمين حقَّ العلم بأنكِ لست فتاة شريرةً ، ورأى مستر بروكلهرست ليس مهماً . لا تشغلي بالكِ كثيراً بآراء الغير .

في هذا الوقت ، جاءت الآنسة تمبلْ وطلبت من جين أن تدخلَ معها إلى غرفتها، والتفتتْ إلى هيلين وقالت :

إذا شئتِ هيلين ، يُمكنكِ المجيء أيضاً ، لي حديثٌ خاصٌ مع جين .

غرفة مسْ تمبل دافئةٌ ومريحـــةٌ . جلسنَ قرب الموقدِ ، وقالت المعلمة بلطفٍ وحنانٍ :

ـ هنا أفضل يا جـين .. أليسَ كذلك ؟ لقـــد بكيتِ كثيراً .

أجابتْ بحزنٍ :



ـ لم أبكِ كثيراً .

قالت المعلمةُ مندهشةً :

ـ هذا أمرٌ غريبٌ .. لم تبكِ كثيراً !

أجل . لأن مستر بروكلهرست مخطىءٌ ، لستُ فتاةً شريرةً . وسيكرهني الجميعُ بسبب هـذا الكلام . ولكنّـي أعرفُ نفسي حقَّ المعرفة. أنا لستُ فتاةشريرةً .

عندها قالت المعلمةُ بهدوءٍ :

ـ أرجوكِ يا جين، حدثيني عن حياتك مع خالتك. وبعد سردِ هذه القصة ، ساكشفُ عن الحقيقة وساحكم بعد ذلكَ على كلامِ مستر بروكلهرست .

وبدأتْ جين تخبرُ المعلمة كل شيءٍ يتعلق بحياتهــا الماضية . وعندما ذكرتْ إسم الدكتور ليودْ ، قاطعتها المعلمة قائلةً :

ـ إن الدكتور ليود مشهورٌ بسمعته الحسنة بـــين الناس ، إنه شريفٌ وإنسانيٌّ . سأبعثُ إليه برسالة طالبةً منه تعليماتٍ وافيـــةً عن شخصكِ الكريم ، وإذا كانتْ قصتك مطابقة لقصته .. عندها ، اتوجهُ نحو الطالباتِ

وساخبرهنَّ بانكِ لستِ فتاةً شريرةً وبانَّ مستر بروكلهرست قد أخطأ في كلامه هذا ، أنتما الآن ضيفتان في منزلي ، سنشربُ الشاي معاً .

* * *

وبعد أسبوعٍ وصلَ الجوابُ لرسالة الآنسة تمبل . وكانت قصةُ الطبيب مطابقةً لقصة جين . ولم تحنث المعلمة بوعدها ، بل نفـَّذت ما وعدتها به .. فأخبرت كل طالبةٍ بان كلام مستر بروكلهرست غير صحيح ، ومنذُ ذلك الحين ، بزغ نورُ الأمل في سماءِ جين المكفهرَّة ، وعادَ إليها الشعور المفرح ، ونسيت ماضيها الكئيبَ وخالتَها الظالمة وأولادَها المغرورينَ المُدَّعِينَ .

* * *

ولىَّ الشتاءُ الباردُ الحزينُ ، واطلَّ الربيع الزاهرُ الضاحكُ .. ولكن مع إطلالة الربيع ، انتشر المرض في لوثُودْ واستطاعَ أن ينالَ ماربه في أجسام الفتيات الضعيفة .. إذْ أنهكهنَّ البردُ والجوعُ ورطوبةُ الغرف الفـــارغة الواسعة . وبدأ التيفوس [1] بالإنقضاض على الواحدةِ تلو الأخرى .. بدون رحمةٍ أو شفقة . ولم يمضِ وقتٌ طويلٌ حتى ودَّعت الحياةَ ثمانونَ فتاة دفعة واحدة.

وبعد انتشار هـذا المرض المعدي اللعين ، ابتعدَ السيدُ بروكلهرست نهائياً عن المدرسة . واطمأنت جين لهـذا الخبر أشد الإطمئنانِ لكنها حزنت جداً لموت هـــذا العدد الكبير من زميلاتها اللواتي قضى عليهن التيفوس وهنَّ في مقتبل عمرِ الصبا .

كذلك هيلين، لم يرحمها المرضُ ولم يشفق على شبابها. لم يقضِ عليها التيفوس ، بل ظلَّ يلاحقها ليلاً نهاراً .. ظلَّ السعالُ ينتابها على الدوام حتى مزَّقَ صدرها الصغير الضعيف ، أصبحت حالتها خطرة جداً. استدعي طبيب الميتم ويدعى الدكتور بش . عندما رأته جين علمت

(١) Typhus أو الحمى الصفراء . وغالباً ما يصيب هذا المرض الحيوانات وبالأخص القطط والكلاب . وهناك نوع من التيفوس يعرف باسم « الحمى النمشية » وهو مرض معد ويتميز بوجود بقع حمراء على الجلد ، ويصاب المريض بانحطاط عميق اثناء اصابته بالحمى . ويمكن محاربة التيفوس بواسطة التلقيح والكلوروميستين Chloromycétine

بأن الأمر خطيرٌ للغاية وبأن هيلين مشرفةٌ على الموتِ لا محالة . دنتْ قلقةً من إحدى المعلماتِ وقالت لها :

ـ لماذا جاءَ الدكتور بُش ؟ هل جاءَ لأجل هيلين ؟

أجابت المعلمةُ بحزنٍ :

ـ أجل . يقولُ الطبيبُ بأن حالتها خطرةٌ ، ستودع المدرسة عما قريب .

سألتها جين متوسلةً :

ـ هل أستطيعُ أن أراها ؟

أجابت المعلمةُ :

ـ آه ، كلاًّ يا بُنيَّتي . إنها مريضةٌ جداً لا تستطيع مقابلة أيِّ شخص ، تعالي وتناولي عشاءكِ الآن وبعد ذلك يجبُ أن تأوي إلى فراشك .

إستلقت جين على الفراش ، ولكن لم يَغمِضْ لها جفنٌ ، بل ظلت تفكرُ بصديقتها هيلين . حدَّثت نفسها : « يجبُ أن أراها الآن ! »

وعلى الفور ، إستيقظت من فراشها واتجهتْ نحو غرفتها،نادتها بهدوءٍ :



ـ هيلين !.. هيلين !.. أنا جين.. هل تسمعيني ؟

قالتْ هيلين :

ـ آه ؟ هـذا انتِ .. جين ! كم أنا مسرورةٌ برؤيتكِ الآن .

قبَّلتها وأحسَّتْ بالبرودة التي تسري في عروقها .. أصبحت نحيلةً جداً ، إنما ما زالت الإبتسامة اللطيفة مرتسمة بمحبةٍ وتحنان على شفتيها الرقيقتين .

قالت جين :

ـ كم أنا مشتاقةٌ إليك ياهيلين،أخبروني بأنكمريضة. أخبروني بأنك مريضةٌ .

ـ جئتِ لتودعيني يا جين .. لقد جئتِ في الوقت المناسب .

قالت جين :

ـ ستبقين معنا .. يا هيلين ، لن ترحلي إلى أيٍّ مكانٍ آخر .. أليس كذلك ؟

حاولتْ أن تجيبَ عن هذا السؤالِ المحير ، لكنَّ السعالَ الحادَّ منعها عن لفظِ كلمةٍ واحدةٍ .

وبعد لحظاتٍ معدودةٍ قالتْ لها :

- لا تحزني يا جين ، إني ذاهبةٌ عند ربي ، إني مسرورةٌ بهذا اللقاء .

حاولتْ جين أن تتكلمَ ولكن بدون جدوى، إن الحزن أقوى من الكلام. إبتعدت عنها بعد أن أستسلمت للنوم العميق . وفي اليوم التالي ، قصدت الآنسة تمبل فاخبرتها المعلمة بان هيلين تركتْ هذه الدنيا الزائفة أثناءَ الليل .. تركتها لتلاقى ربها مسرورةً في الجنةِ .

* * *



بعد رَحيلِ التيفوس عن لُووُودْ ، طرأتْ تغييراتٌ وتبديلاتٌ عديدةٌ في المدرسة هذه . نقلها المسئولونَ إلى مكانٍ أفضل ، أقلّ برودةً ورطوبةً ووزّعتْ على الطالبات الثياب الجديدة الجيّدةُ الصنع والأطعمة الجيدةُ ، ونسيتْ جين في هذا الجو الجديد ، عذابَ وتعاسة سنين الطفولة الغابرةِ . بقيتْ هناك ست سنوات كطالبة داخلية وسنتين كمعلمةٍ . وعاشت هاتين السنتين مسرورة ، مطمئنة البال. وخلالَ فترةِ الدراسة لم تكن الآنسة تمبلْ معلمتها وحسب، بل صديقتها الأكثر إخلاصاً ومودة . ولكن تزوجت المعلمة كاهناً وهي ما تزال طالبةً في المدرسة ، وابتعدت مع عريسها عن لووودْ لتعيش في بيتها الجديد . وتغيرتْ حياةُ جين بعد رحيل صديقتها الآنسة تمبلْ . شعرت بالغربة .. أصبحتْ تعيش وحيدةً بين الطالبات ، تحتاجُ إلى

صديقة مخلصة ، عندها ، قرَّرت مراسلة جريدة ، حيث تخبرها عن مشكلتها الخاصة وتنتظرُ منها الحلَّ المناسب .

« شابةٌ ترغبُ العملَ في بيتٍ حيثُ لا يتجاوزُ عدد الابن الاكبر سناً الرابعةَ عشرة من العمر . تُعلِّمُ الموادَ التاليةَ : الإنكليزية ، الفرنسية، الرسم والموسيقى. العنوان : ( ج.و. ) مكتب البريد ، لوود » .

إنقضى أسبوعٌ ولم يصلها أيْ جواب بشأن هذا الإعلان. فكَّرتْ الذهابَ إلى مكتب البريد ، هناك وجدت رسالة واحدة فقط . كانتْ مختصرة جداً . والمرسلة هي السيدة « فيرفاكس » التي تسكن في « ثورنفيلدهول » قرب « ميلكوت » إنها بحاجة إلى مربّية كي تعلّم وتعتني بفتاة صغيرة في التاسعة من العمر .

ومن خلال خطها ، اتضحَ لجين بان صاحبه الرسالة هي امرأةٌ عجوز ، وأحبت الذهابَ إلى «تورنفيلدهول» وأحستْ بقوة خفية تدفعها إلى هذا المكان المجهول .

وفي اليوم التالي، قصدت جين رئيسة الميتم، وحدثتها عن الرسالة الوحيدة التي أستلمتها من السيدة « فيرفاكس»



وبعد ذلك ، اتصلت رئيسة الميتم بالسيد« بروكلهرست» . ولم يسمحْ لها بترك المدرسة إلا بعد الحصول على موافقة خطية من خالتها السيدة « ريد » ، ونزولاً عند رغبة الإدارة ، كتبت رسالة إلى خالتها . واستلمتْ بعد أيام ، الجواب التالي : « بمقدور جين آير أن تفعل ما يحلو لها. لا أُريد أن أعرفَ أيَّ شيءٍ يتعلق بها أو يتعلق بحياتها» .

واستناداً إلى هذا الجواب المختصر ، قررتْ جين مراسلة السيدة « فيرفاكس » حيثُ كتبتْ ما يلي :

« حضرة السيدة فيرفاكس الفاضلة

تحيةً وبعد

يسرني المجيء إلى بيتك الكريم والقيام بمهمة المربية . ساكون تحتَ تصرفكِ بعد أسبوعين تقريباً إن شاء الله من تاريخ هذه الرسالة .

مع فائق الاحترام

جين آير »

مَضَتْ فترة الأسبوعين بسرعةٍ . شأن جين شأن عصفورٍ سجين داخل قفص من حديد .. يتأهب بفارغ

الصبر للإنطلاق من جديد حراً طليقاً في رحاب السماءِ الواسعة !.. لذا ، بدت لهـــا الأيام كالثواني .. تنساب مسرعةً كالنهر السلسبيل . وفي اليوم الموعود ، سمعت طرقاً على الباب ، قفزت من مكانها قلقةً ، وفتحتهُ على الفور ، ظهرت خادمةٌ وقالت لها :

ـ هناكَ شخصٌ في الطابق الأرضي يودُّ مقابلتك يا مس آير .

حدثت نفسهامندهشةً : «شخصٌ يودُّ مقابلتي ؟!من يا تُرى ؟ » واتَّجهتْ مسرعة نحو قاعة الجلوس .. وإذ بامرأة شابة تتجه نحوها ، ترتدي الثوبَ الأنيق ، وهي تقول لها :

ـ حسناً ! لم تعرفيني بالطبع ، لقد تغيرتُ كثيراً ، أليس كذلك يا « جين » .

ـ من ؟ « بسّي » ! يا للصدفة السعيدة !

و « بسّي » هي الصديقـــةُ الوحيدة التي أحبتها وصادقتها في « غتسهدْهول » وكانَ فرحها عظيماً عند مشاهدتها بعدَ هذا الفراق الطويل، حدثتها عن«غتسهد»



عن زوجها وولديها الإثنين ، وقالت لها بسرور بالغ :

ـ عندي صبي وبنتٌ ، وسميتُ البنتَ « جين »

ثم حدثتها عن عائلة « ريد » ، فقالت :

ـ إن « جون ريد » هو الإبن المفضلُ لدى أمه ، إنه رجلٌ سكير .. وقد صرفَ اموالها ولم يتعلمَّ مهنة مفيدة في حياته. أما « جيورجيانا » فقد أحبَّت رجلاً، وأرادتْ أن تتزوجه ، لكن اختها « إليزا » عارضتها بعنفٍ وما زال الجدال قائماً بين الطرفين ..

قالتْ « جين » :

ـ آه ! ما تزالُ الحياةُ مضطربةً في « غتسهدهول » لم يطرأ أيٌ تغيير يذكر سوى زواجك يا بسّي .

قالت بسّي :

ـ الحمد لله !.. إنك في صحةٍ جيدة .

صمتت قليلاً ثم قالتْ :

ـ هل وَصلك ايُّ خبرٍ جديدٍ بخصوص أهل أبيك يا « جين » ؟

أجابتْ بحزنٍ :

– كلا ، لا أعرفُ شيئاً عنهم .

قالتْ بسّي :

– تقولُ مسز « ريد» بأن أقاربَ والدك هم فقراء.
وذات يوم •• جاءَ إلى « غتسهيد » مستر « آير » أي منذُ سبع سنوات تقريباً •• وسألَ عنكِ .. يبدو بأنه رجلٌ غني حقاً .

– وماذا قالت له خالتي ؟

أجابتْ بلهجةٍ جافةٍ مقلدةِ الخالة :

– للأسف ! إنها موجودةٌ في « لوودْ » .. ولكنه لم يستطعْ الذهابَ إلى مدرستك.. بسبب ضيق الوقت • بل اضطرَّ إلى متابعة سفره بحراً •• إلى مكانٍ بعيدٍ •

سألتهُ « جين » بقلقٍ :

– إلى أين سافرَ يا بسي ؟

– إلى جزيرةٍ مشهورة بصناعة الخمر •• لا أتذكرُ الإسمَ الآن .

قالتْ « جين» :

– « مادِرا » [١] •• أليس كذلك ؟

---
(١) Madeira



– أجلْ .. هذا هو الإسمُ : « مادِرا » •• حيثُ يصنعونَ الخمرَ •

وبعد ساعتين من المحادثة والمجاملة ، ذهبتْ « بسّي» فرحةً بهذا اللقاء السعيد •• هي ارتحلتْ مــع زوجها ووليدها إلى شمال « غتسهد » و « جين » إنتقلت في اليوم التالي وبدون رجعةٍ .. من عالم « لوودْ »•• إلى جنوب « ثورنفيلد » • إلى مستقبلها الضاحك أو البــاكي •• لا أحد يعلم ذلك •• سوى الله عزَّ وجلالهُ •• العــالِم بأحوالِ الأنامِ في الحلِّ والترحالِ •

***

كانت الرحلةُ طويلةً وشاقةً . تركتْ « لوودْ » عند الساعةِ الرابعةِ صباحاً ووصلتْ إلى فندق «جورج» في « مِيلكوت » ، عند الساعةِ الثامنةِ مساءً . ولم تَنتهِ الرحلةُ بعد!.. بل انتقلتْ من الفندقِ المذكور بواسطةِ عربةِ خيل.. إلى « ثورنفيلدهول » .

وصلتْ أخـيراً إلى دار السيدةِ « فِرفاكس » في ساعةٍ متاخرةٍ من الليل ، فتحتْ امرأةُ البابَ وقادت الآنسة « جين » إلى السيدة فرفاكس . اختارتْ لهـا غرفةً صغيرةً نوعاً ما ، دافئةً ومريحةً ، عكسَ الغرفة الواسعة البـاردةِ التي كانت تسكنها في بيت خالتها الظالمةِ الحاقدةِ .

وتحدَّثتْ معها السيدةُ فرفاكسْ بلطفٍ بالـغٍ فقالتْ لها :

ـ تعالي واجلسي قرب الموقدِ يا عزيزتي ، لا بدَّ



أنكِ تشعرينَ بالتعبِ والبردِ بعد هذه الرحلة الطويلة ، لا بدَّ أنكِ جائعةٌ أيضاً .. أليسَ كذلكَ ؟

من النظرةِ الأولى ، أدركت «جين» بأن هذه المرأةَ طيبةُ القلبِ ، ولطيفةُ المعشرِ ، إنها تناهزُ الستينَ من العمر ، قصيرةُ القامة ، وترتدي ثوباً زاهياً يخصُّ امرأةً في الثلاثين من العمر .

واثناء الحديثِ ،علمتْ « جين » بأن الفتاةَ الصغيرةَ التي جاءتْ خِصيصاً لأجلهـا ، ليستْ إبنةَ السيدة « فرفاكس » ، إن هـذه السيدة ، مسئولةٌ عن التـدبير المنزلي وحسب ، لذلك ، خطرتْ ببالها عدةُ أسئلة :

« يا ترى ، من هو صاحبُ هذا البيت؟ وأينَ هو الآن ؟ وهذه الفتاةُ الصغيرةُ ..هي ابنةُ من؟ من هي والدتُها؟.. من هو والدُها ؟» .

***

نامتْ تلكَ الليـلة نومـاً هنيئاً . شعرتْ بالسرور لأنها بدأتْ حياتها الجـديدةَ في جوٍّ من الإستقرار والطمأنينة . وعندما استيقظتْ في اليوم التالي،استقبلتها الشمس فرحةً .. وحـدَّثتْ نفسها وهي تقتربُ من النافذةِ التي تطلُّ على الحديقةِ الجميلةِ : « يا ترى .. ماذا يخبىء لي المستقبلُ بين طيَّاتهِ ؟» .

إرتدَتْ ثيابها واتجهتْ نحو الطابقِ الأرضيِ محاولةً إكتشاف خفايا هـذا البيتِ الواسعِ الجديد ، جميع الغرف واسعةٌ جداً ما عدا غرفتها وغُرفة السيدةِ « فرفاكس » ، إنما بدا لها هذا المنزلُ الفسيحُ ، موحشاً وفارغاً .. كأنهُ مهجورٌ .. هجرهُ أصحابه لمدةٍ طويلةٍ ثم عادوا وسكنوهُ من جديدٍ .. منذُ فترةٍ قصيرةٍ . ثم اتجهت نحو الحديقة حيثُ ألقتْ نظرةً عامةً على الدار من الخارج ، يبدو منعزلاً تماماً عن سائر البيوت في هذه



المنطقة الهادئة ، تحيطهُ التلالُ من كل جانبٍ .

في هذه الأثناء ، ظهرتْ السيدةُ « فرفاكسْ » على عتبة البابِ .. إقتربتْ من « جين » والإبتسامةُ تعلو شفتيها وقالت لها بصوتٍ خفيضٍ :

– صباحَ الخير يا « مس جين » .. هـل أعجبتكِ « تورنفيلد » ؟

– جداً .. جداً ! إنه مكانٌ جميلٌ للغاية .

وقالت السيدةُ :

– لكني أخافُ أن يفقدَ هذا المكانُ جماله .. بسبب أسفار السيد «روتشستر» المتواصلة..إلى مناطق قَصِيَّةٍ.

سالتها « جين » بدهشةٍ :

– مستر « روتشِستر » ! ومن هو ؟

أجابت مسز « فرفاكس » :

– إنه مالكُ « تورنفيلدهول » .

ثم ضحكتْ قائلة :

– كم أنا بلهاء !.. نسيتُ أن أُخبركِ عن إسمه !

وقالت جين :

- هذه الفتاةُ الصغيرة .. هي إبنته.. أليس كذلك؟

أجابت السيدة فرفاكس :

كلا ، لقد جاءَ بها السيد « روتشستر » من فرنسا منذُ ستة أشهر ، إنها يتيمةٌ . بعد موت أمها ، قرَّر الإعتناءَ بها . إنها تدعى « آدل فارنس » .

إلتفتت « جين » إلى الباب الرئيسي فرأت الفتاةَ الصغيرةَ وهي تخرجُ من البيتِ وبصحبتها خادمةٌ فرنسية ، ودنت « آدل » من « جين » عندها قالت السيدةُ « فرفاكس » :

- هذه هي الفتاة الفرنسية التي حدثتك عنها ، لم يكن الأمر سهلاً البتَّة ،عند وصولها إلى هذا البيت.. إذ لا تعرفُ كلمةَ انكليزية واحدة ، ولكن مع الأيام ، إستطاعت « آدل » أن تتعلم الإنكليزية بسرعةٍ مدهشة .

قالت « جين » :

- إنها فتاةٌ ذكيةٌ .

قالت السيدة « فرفاكس » :

- أجل ، إنها ذكيةٌ جداً .



حدثتها « جين » بالفرنسية ، ففرحتْ جداً. وأثناء تناول الترويقة ، بدأت « آدل » بسردِ قصة حياتها في فرنسا لمعلمتها الجديدة ، بشوقٍ وسرور . حدثت « جين » نفسها وهي صامتة :

« لا يتجاوز عمرها التاسعةَ ، ومع ذلك تبدو أحياناً أكبرَ من سنها » .

بعد تناولِ الترويقةِ .. حانَ وقتُ الدرس،وبدأت الآنسة « جين » بتعليم « آدلْ » في غرفة المكتبةِ ، واستمرَّ التعليم حتى الظهر ، ولم يكن الأمرُ سهلاًبالنسبة للطالبة الصغيرة .. لأنها تتلقى درساً للمرة الأولى في حياتها ، لكن ذكاءها الفطري دفعَ معلمتها إلى القول :

- إني واثقةٌ يا « آدل » بأنكِ ستحرزينَ مع الأيام تقدماً ملموساً .. لأنك ذكيةٌ وعاقلةٌ . لا تدَعي اليأس يتسربُ إلى قلبكِ الصغير ، « من جدَّ وجد » .

قبلَ الترويقة ، قامت الآنسة « جين » بجولةٍ داخل البيت الفسيح برفقة السيدة فرفاكس .. جميعُ الغرفِ نظيفةٌ وجميلةٌ .. ولكن أحست « جين » بأن المنزل

موحش .. ساكن جداً . إنه مفتقر إلى حيــاةٍ وإلى ناسٍ .

فكرت قليلاً ثم قالت لها :

ـ أود التعرف على السيد « روتشستر » .. ما هو شعورك تجاهه ؟

أجابت :

ـ إنه لطيف جداً ، إنني أشرف على بيتـــه منذ مـدة طويلة . أنا شخصياً أراه لطيفاً .. ولكن بعض الناس يعتقدون بأنه غريب الأطوار .

ـ غريب الأطوار ؟! ولماذا ؟

وجهت « جين » هذا السؤال بدهشةٍ بالغةٍ .. إذ يراودها على الدوامِ شعور غريب .. كلما تأملت جو البيت والفراغ الذي بلغـــه من كل جانب . لا بد من وجود أمرٍ خفي .. ولكن متى سيظهر هــذا الأمر الخفي ؟ وكيف ؟ لذلك طرحت هذا السؤال بلهفةٍ على السيدة « فرفاكس » وتمنت لو تجد الجواب المنشود . ولكن إكتفت بالقول :



ـ ماذا أقول لك يا آنسة « جين » ؟! .. إنه أمر صعب للغاية . عندما تتحدثين معه ، لا يمكنك التاكد من طبيعة حديثه : هـل يهزأ منك أثناء الحوار أم هو جاد بكل معنى الكلمة ؟ بعض الأحيان ، يبدو رصيناً وفجأةً يبدأ بالضحك الساخر ، وأحياناً أخرى ، يحتار المرء أمام تصرفه الغريب .. فيتساءل وقــد تملكته الحيرة : « هل هو غاضب الآن أم مسرور ؟ » لكنه يعمل بنشاطٍ .. وإنني معجبة بشخصيته . أرادت أن تضيف شيئاً هاماً .. لكنها ترددت قليلاً .. ثم فضلت الصمت على الـكلام . لا بد من وجود سرٍ دفـين تود الإفصاح عنه .. أدركت « جين » بأنها صمت على تجاهل هـذا الأمر الخطير .. كان لسان حالهـا يقول : « إذا انتشر سر بين إثنين .. شاع » .

إنَّ أفضل طريقة للوصول إلى الحقيقة،هو التعرف عليه والتحدث معه . لهــذا السبب ، صمتت « جين » وتابعت جولتها مع السيدة « فرفاكس » . ولما صعدتا إلى الطابق الثالث ، لاحظت بأنَّ الغرف مختلفة تماماً

عن سائر الغرف ، إنها صغيرة ومظلمة .. وتكوينها الغريب يثير الرعب في النفوس .

سألتها خائفة :

ـ هل ينام أحد في هذا المكان ؟

ـ كلا . لا ينام أحد هنا ، ينام في الجهة الأخرى من هذا الطابق .

ثم ضحكت قائلة :

ـ لا يوجد هنا .. سوى بعض الأشباح !

واجتازت « جين » باباً صغيراً فرأت نفسها وجهاً لوجه أمام أشعة الشمس الدافئة .. إنه سطح البيت الذي يطل على منظر التلال الخصبة المحيطة به من كل جانب . وعند رجوعها إلى غرفتها ، سمعت صوتاً غريباً ومنخفضاً .. لا علاقة له بالصراخ أو بالضحك ، ثم دوى هذا الصوت مرة أخرى .

إقتربت « جين » من السيدة « فرفاكس » وقالت خائفة :

ـ ما هذا الصوت المخيف ؟



أجابت بهدوء .. كأن شيئاً لم يكن :

ـ آه !.. لا شيء يدعو للخوف يا « مس جين » ! هذا صوت خادمة بالأرجح .. إنه صوت «غريس بوول» إنها تصعد إلى هذا الطابق لتعلم الخادمات مبادىء الخياطة .

ـ هل أنت متأكدة يا « مسز فرفاكس » ؟

ـ أجل . أجل . إني متأكدة ، إنها « غريس بوول» إنه صوت عادي ، لا يثير الرعب إطلاقاً .

وتعالى الصوت مرة أخرى .. ولكن هذه المرة ، يبدو كأنه ضرب من الضحك .. إنما يخلو من أي نوع من السعادة . ثم فتح باب وخرجت من الغرفة امرأة تناهز الاربعين من العمر شعرها أحمر ووجهها مربع الشكل ، إنما لا تبدو الغرابة على وجهها الحزين .

وعند رؤيتها ، قالت لها « مسز فرفاكس » :

ـ صوتك أزعجني يا « غريس » .

ثم التفتت إلى « جين » وقالت لها :

ـ نسيت أن أسألك عن الفتاة « آدل » .. هل هي تلميذة ذكية ؟

ـ أجل .. إنها ذكية وعاقلة .

وعند نهاية الحديث ، إستأذنت « جين » من « مسز فرفاكس » ودخلت إلى غرفتها الدافئة وهي تفكرُ طيلة الوقت بهذا الصوت الغريب وبهذه الغرفِ الصغيرة والمظلمة التي تثيرُ الرعب في نفس الإنسان .. منذُ الوهلةِ الأولى .

* * *



لم يُعكرْ أيُّ شيء صفوَ الحياةِ في « تورنفيلد » كل شيء يسيرُ على ما يرام . نسيت « جين » عذابها وحرمانها أيامَ الطفولة وايامَ المدرسة عند خالتها وفي الميتم على حدٍّ سواء . أما « آدل » ، فقد أحرزت تقدماً ملموساً في جميع دروسها ، فاستفادتْ من معلمتها حق الإستفادة . والسطحُ هو المكان المفضَّلُ لدى الآنسة « جين » هناكَ تقضي معظمَ أوقاتها وهي تتامل المناظر الطبيعية الخلاَّبة . وفي هذه الأثناء ، كانت تسمعُ صرخاتٍ متقطعةً .. وكانت تحدثُ نفسها : « هذه غريس بوول .. مرةً أخرى ! »

* * *

ذات يومٍ طلبتْ مسز فرفاكس من الآنسة « جين » وضعَ رسالةٍ في مكتب البريد في القرية ، ولا تبعدُ

القرية اكثرَ من ميلين عن البيتِ . نفذَّتْ الطلب بكل سرور .. لأنها تودُّ الآن القيامَ بنزهةٍ .. بخاصة في فصل الشتاء .. في هذا اليوم البارد الصافي .. إنطلقت «جين» عند الساعة الثالثة بعدَ الظهر وهي تجتازُ تلَّةً إثر تلةٍ فرحةً .. مطمئنةَ البال .. وبعد وقتٍ قصير ، إتجهتْ نحو صخرةٍ صغيرةٍ وجلست عليها لتستريحَ .. وفجأةً سمعت صهيلَ حصانٍ يتعالى من مسافة بعيدة .. إلتفتت إلى مصدر الصوت ، فرأت حصاناً مسرعاً وهو يسقط على طريقٍ ثلجي بينما يحاولُ فارسه الوقوف على قدميه ولم يفلحْ .. وبجـــانبه كلبه الذي يحومُ حولهُ وينبح باستمرار . عندهـــا ، اتجهتْ « جين » مسرعةً نحو الفارس المجهول ، علَّها تساعده للنهوض بعد السقوط الفجائي والعنيف . إستطاعَ الحصانُ أن يقفَ على أقدامه .. عكسَ الفارس المسكين ، الذي ظلَّ منبطحاً على الأرض ، محاولاً النهوضَ .. ولكن بدون جدوى . إلى أن وصلت « جين » وقالت له بتردُّد :

ــ هل أستطيعُ أن اساعدكَ يا سيدي ؟



فأجابَ بلهجةٍ جافةٍ :

ــ كلا ، كلا ، إبتعدي من هنا ، إحذري الحصان إنه شرسٌ .

لم تأبهْ لكلامه ، بل تابعت قائلةً :

ــ ولـــكنْ إذا كنتَ مصاباً بجروح يا سيدي .. أستطيعُ الذهابَ إلى القرية لطلب النجدة .

ــ كلاّ شكراً ، إني على أحسن ما يرام .

إنما الكلبُ ،ظلَّ ينبحُ بصورة مزعجة ومتواصلة ، صاحَ الفارسُ الجريحُ باعلى صوته :

ــ كفى يا « بايلوتْ ! » كن هادئاً ، إبتعدْ عني .

ثم حاولَ الوقوفَ على رجليه ، لكنه لم يستطع .. لاحظتْ « جـــين » بأن رجله مصابةٌ إصابة بليغة ولاحظتْ أيضاً بانه في الأربعينَ من عمره . معتـــدل القامةِ وتبدو علائم الرصانة واضحةً على قسمات وجهه والجديرُ بالذكر ،أنها لم تشعر بالخوف لدى الإقتراب منه. ولم تشعر أثناءَ التحدُّث معه ، بأنه شخصٌ غريبٌ وبانها تلتقيه لأول مرةٍ في حياتهـــا ، رغم جوابه الجاف ،

إقتربتْ منه مرةً ثانيةً ، وقالت له مؤكدة :

ـ لا أستطيعُ يا سيدي أن أتركَكَ لوحدكَ في هذا المكانِ الموحش ، أنتَ بحاجةٍ إلى مساعدةٍ .

أخيراً ، وافقَ على كلامها وقالَ بلهجةٍ هادئةٍ :

ـ حسناً . هل بإمكانكِ القبضَ على حصاني ؟ خذي حذركِ .. إنه يرفسُ بعضَ الأحيان .

حاولت القبضَ على الحصانِ ، ولكن لم يحالفها الحظُ إذْ اعتراهُ الخوفَ لدى مشاهدتها وهي تقتربُ منه ، إنه لا يعرفها .. فابتعدَ عنها على الفور وكادَ أن يرفسها ، عندها صاح الفارسُ المجهولُ :

ـ آهِ ! دعيه وشأنه ! إنه خائفٌ منكِ ، تعالي وساعديني ، عندما أتّكيء على يدكِ ، أصبح قادراً على الوقوف على قدميّ .

إنه مصابٌ بجرح بليغ .. ولـكن رغمَ ذلك ، إستطاعَ أخيراً بفضل مساعدتها ، الوقوفَ على قدميه .

ثم ، دنا من حصانهِ وقبلَ أن يمتطيه قال لها :

ـ والآن أيتها الآنسة ، يجب أن تكوني في بيتكِ ،



لقد غابت الشمسُ ولا يجبُ أن تبقي في هـذا المكان لوحدك ، أينَ تسكنينَ ؟

أجابتْ وهي تشيرُ إلى الوادي :

ـ هناك ، في « تور نفيلدهول » .

سألها :

ـ من هو صاحبُ هذا البيت ؟

أجابتْ :

ـ السيد « روتشسترْ » .

ثم سألها :

ـ وهل تعرفينَ السيد « روتشستر » ؟

أجابتْ :

كلا .. لا أعرفه

ـ وهل هو موجودٌ في بيتـه الآن ؟

ـ كلا يا سيدي .

وأُصيبتْ « جين » بدهشةٍ بالغةٍ .. عندما طرحَ عليها مثلَ هذه الأسئلة المختلفة والمتعلقة بشخصيةصاحب المنزل ، فحدّثتْ نفسها :

« يا ليتني أعرفُ هوية هـذا الفارس المجهولِ الذي يوجهُ اليّ مثلَ هذه الأسئلة العديدة ! »

تابعَ كلامهُ :

ـ أينَ هو الآن ؟ .

ـ إني آسفةٌ يا سيدي ! لا أعرفُ أينَ يوجد الآن ؟

أخذَ يتأملها مليّـاً ، ويرمقُ ثيابها بنظرات فاحصةٍ :

ـ هل أنتِ خادمةٌ في ذلك البيت ؟

ـ كلا يا سيدي ، إني المربيةُ ، إني أُعَـلِّـمُ الفتاة الصغيرةَ .

حدَّثَ نفسه بصوتٍ عالٍ :

ـ آه ! أجل ! المربّـية .. المربّـية ، لقد نسيتُهاتماماً !

إلتفتَ إليها وقالَ بلهجةٍ لطيفةٍ :

ـ حسناً إيتها الآنسة .. يجبُ أن تسرعي في الرجوع إلى البيت ، قبل هبوطِ الليل .

أجابتْ موضحةً :

ـ إني ذاهبةٌ إلى القرية لوضعِ هذه الرسالة في مكتب البريد .. وساعود بعد ذلك إلى البيت .



ـ حسناً .. أسرعي بقدر المستطاع .

ثمَّ امتطى حصانهُ ، وانطلقَ في اتجاه « تورنفيلد » بينما تابعتْ « جين » سيرها نحو القرية .

وعند عودتها من القرية ، أخذت تفكرُ بامر هـذا الشخص الغريب ؛ قررتْ في البداية عدمَ الرجوع إلى تورنفيلد ، ثم غيرَّتْ رأيها وتابعت سيرها على مهلٍ .. إلى أن وصلت أخيراً إلى البيت ودخلت إلى غرفتها ، وإذا بها تسمع صوتاً عميقاً وهو ينادي من الدار :

ـ « آدِل » .. أين هي « آدِل » ؟

ومما أثارَ دهشتها أيضاً هو وجودُ هذا الكلب الأبيض والأسود الذي إلتقتهُ في الطريق أثناء سقوط الفارس المجهول عن ظهر الحصان . حدثتْ نفسها : « مـــاذا يفعلُ هذا الكلبُ بالذات ، في غرفة السيدة فرفاكس ؟ ماذا جرى ؟ هل جاءَ زائرٌ غريبٌ إلى « تورنفيلد ؟ » وزياداً في التأكيد ، إقتربت منهُ ونادتهُ :

ـ بايلوت !

إنتبهَ الكلبُ إلى إسمه .. التفتَ إليها ثم اتجهنحوها، عندها أدركتْ « جين » حقيقة الأمر : هـــذا الفارس

المجهولُ والزائر الغريب ما هو إلا مستر « روتشستر »
صاحب هذا البيتِ بالذات ! يا للصدفة ! ويا للعجب !.
لقد تبدلت حياةُ « جين » منذ اللحظة التي التقت فيها
نظرانها بنظراتِ هذا الشخص الغريب ، هل هو الحب؟
ما الذي أثارَ شعورها وجعلها حائرةً مرتبكةً ؟



ولم تشاهد « مسز روتشستر » إلا في اليوم التالي ،
قصدتها « مسز فرفاكس » وقالت :

ـ يدعوكِ أنتِ وآدل لتناول فنجان الشاي معهُ
عند المساءِ .

وفي الوقت المحددِ ، ذهبت الآنسة « جـين » إلى
غرفة الجلوس وبصحبتها التلميذة الصغيرة آدل ، أدّت
التحيةَ بلطفٍ ظاهرٍ ، كذلك فعلت آدل .. وانتظرت
رد التحية من صاحب الدار ولكن بلا جدوى إنما إتضح
لها من اللقاء الأول بانهُ انسانٌ غير مهذب ، لذلك ، لم
تتاثر بموقفه هذا الآن .. بل توقعت منهُ مثلَ هـذا
التَصرُّفِ ، جلستْ قربَ الموقدِ صامتةً ، بدأت « مسز
فرفاكس » الحـديث عن الطقس إنما اكتفى « مستر
روتشستر » بالقول :

ـ أُريدُ فنجاناً من الشاي .

سألتهُ آدل عن الهدية التي وعدها بها ، لكنه لم ينبس

بنت شفة [1] .

وبعد نصف ساعةٍ من الصمتِ المزعج إلتفت إليها « مستر روتشستر » ثم وجَّـهَ لها أسئلة تتعلقُ بحياتهـــا الخاصة ثم طلب منها أن تحدثهُ عن عائلتها وعن «لووود» وعن « مستر بروكلهرست » أخبرتهُ عن كل شيء يتعلق بهذه الأمور ، بصراحة تامة وسألها أخيراً :

ـ هل تعزفين على البيانو ؟

ـ أجل .. ولكن لستُ ماهرة جداً في هذا الميدان .

عندها قالَ لها آمراً :

ـ إذهبي إذن إلى غرفة المكتبة ، واعزفي قليـــلاً على البيانو .

ونفذّت الأمرَ على الفور . وبعد دقائق معدودةٍ ، طلبَ منها التوقفَ عن العزفِ ، قائلاً بلهجة ساخرة :

ـ أنتِ على حق . لستِ ماهرة جداً في هـــذا الميدانِ .

بعد ذلكَ ، سألها عن موهبتها بشأن فن الرسم .

فأجابتْ باعتزازٍ :

(١) أي لم يلفظ كلمة واحدة .



ـ أعتقدُ بأني أتقنْ هذا الفنَ .

وقدّمتْ له بعضَ أعمالها الفنية ، فَبَدَتْ عـــلائمُ الإعجاب واضحةً على قسمات وجهه ، فقالَ :

ـ من ساعدكِ لرسم هذه الصور الجميلة ؟

أحستْ بأن مثلَ هذا السؤال ضربٌ من المديح ، فقالت مبتسمةً :

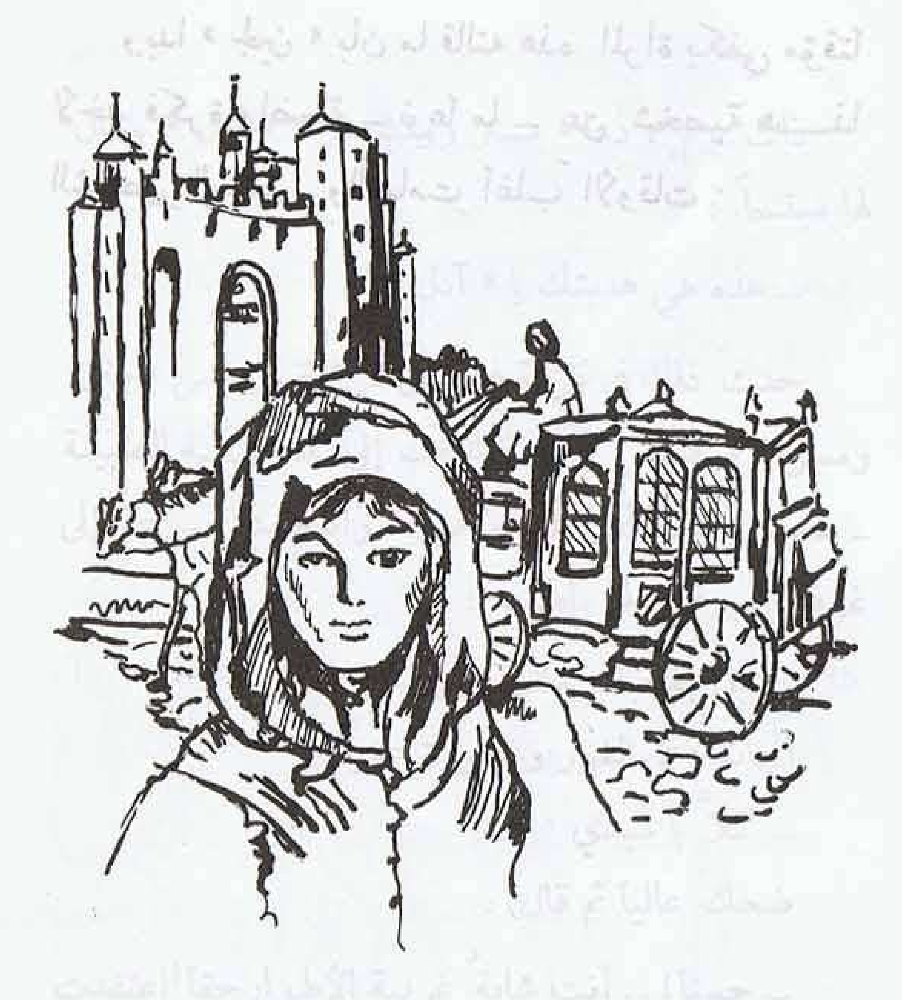
ـ لا أحد يا سيدي ، لا أحد .

وطالَ الحديثُ بينهما،ولم يبتسمْ « مستر روتشستر» إطلاقاً ، خلالَ السهرة ، رغم هذا التصرُّفِ الجافِّ ، لم يساورْ « جين » أيُّ قلق أو أيُّ إزعاج ، بل وجدت السلوى والمتعة في هذا اللقاء الوحيد .. بعد أن قضت عدةَ ليالٍ في هذا البيتِ الواسع ، في الوحشة والعزلة . ولما دقت الساعةُ التاسعة مساءً ، قال « مستر روتشستر » بصورةٍ آليةٍ :

ـ أتمنى لكم جميعاً ليلةَ سعيدةً .

وانصرفت الآنسة « جـــين » بهدوءٍ وطمانينة إلى غرفة النوم ، لتحلم هناكَ أسعد الأحلام وأهناها .

وقبلَ أن تذهب إلى فراشها لتحلم بمستقبلٍ زاهر



ضاحك ، فضّلت الإستفسارَ عن نقطةٍ حيرتّها أشد الحيرة بخصوص شخصية صاحب البيتِ .

فقالت « لمستر فرفاكس » :

– هل يتصرفُ هكذا .. على الدوام ؟

أجابت :

– يبدو لك بانه شخصٌ جافٌّ .. ولكنه في الواقع شخصٌ طيب القلب ولطيفُ المعشر .

صمتت قليلاً ثم قالت :

– ماذا أقولُ لك ؟.. انه يعاني من عدة صعوبات .. لا يمكن التحدثُ عنها بصراحةِ الآن ، رغم هذا الموقف السلبي ، سألتها « جين » بإلحاح :

– حبذا لو تخبريني بعض الشيء عن هذه الصعوبات العديدة يا مسز « فرفاكس » !

– لا أعرف إلاَّ القليلَ يا مس « جين » ، يوجد سوءُ تفاهم وقد طالَ أمده بينه وبينَ والده وأخيه « رويلاند » ، لم يقدّما له أي عونٍ ماديٍ . لذلك ، لم يرجع إلى « ثورنفيلد » إلا بعد موت أخيه منذُ تسع

سنواتٍ تقريباً ، حتى في هـــذه الأيام ، يقضي معظمَ أوقاته في الخارج .

وبدا « لجين » بان ما قالته هذه المرأة يكفي مؤقتاً لأخذِ فكرة واضحة ـ نوعاً ما ـ عن شخصية هــذا الشخصِ الغامضِ والصامتِ أغلبَ الأوقات .

* * *



ذاتَ يومٍ ، دعا « مستر روتشستر » « آدل » وقالَ لها مبتسماً :

ـ هذه هي هديتك يا « آدل » .

حدثَ ذلك في غرفة الجلوس ، بحضور مس «جين» ومسز « فرفاكس » .. ثم التفت إلى المعلمـــة الصبيَّة ـ بعد أنْ حملت آدل هديتها فرحةً واتَّجهت مسرعةً إلى غرفتها ـ وقالَ لها بلطفٍ :

ـ هل يعجبكِ مظهري يا مس « جين » ؟

أجابتهُ على الفور وبصورة عفويةٍ :

ـ كلاَّ يا سيدي .

ضحكَ عالياً ثم قالَ :

ـ حسناً ! .. أنت شابةٌ غريبة الأطوار حقاً ! اعتقدت للوهلة الأولى بانك هادئةٌ ومهذبةٌ .. ولكني أراك الآن عكسَ ذلك : تُعْطِينَ جواباً قاسياً وصريحاً للغاية ! مع



ذلك ، إني احبُ هــذا النوعَ من النساء ، إنك تحبين الصراحة ، إني اكرهُ الأشخاص الذين يعملون المستحيل كي ينالوا إعجابَ الآخرين .

اجابت بصوتٍ خفيضٍ :

ـ إني آسفةٌ يا سيدي ، لم أشأ أن ابدو أمامك غيرَ لطيفة .. لكن الحياةَ القاسية التي عشتها أيامَ الطفولةوفي الميتم ، جعلتني جافّـة ، بحيثُ تنقضي اللياقة اللازمة .

أجابها على الفورِ :

ـ آه ، لم يُزعجني جوابكِ إطلاقاً ، إن صراحتك تعجبني للغاية ، لا داعي للخوف ، أحبُ أن نقضي هذه الليلة معاً .. ونحن نتجاذبُ أطرفَ الحديث . أرجوك لا تتوقفي عن الكلامِ .

أصيبت بحيرةٍ ولم تعرف كيفَ تتابعُ الحديثَ ، رمقته بنظرةٍ حائرةٍ والتزمت الصمتَ .

كرّرَ الطلبَ قائلاً :

ـ أرجوكِ ، مس إير .. كلّميني ، أودُّ الإستماع إلى حديثكِ .

سألتهُ مرتبكةً :

– ماذا أقولُ يا سيدي ؟ إني حائرةٌ .

حاولتْ أن تبدأ بالحديث ولكنها لم تستطع ، ربما لأنهُ أمرها بذلك .

بعدَ دقائق معدودةٍ إبتسمَ وقالَ :

– إني آسف يا مس إيرْ ،لا أريد أن احدثك بصفتك مربّية « لآدل » ، أرغبُ التحدثَ معك كصديقة لي .

عندها ، سهلَ الأمرُ على مس إيرْ . لكنها ، بادرته قائلةً :

– يسرُني أن اتحدثَ معكَ . ولكن ، يجبُ أن تطرحَ عليَّ سؤالاً معيناً .. بعد ذلك ، أستطيعُ أن أعرفَ من أين أبدأ .

في الواقعِ ، لم تتحدثْ مس إيرْ كثيراً في الساعة القابلة ، بل حصل العكس تماماً ،إذْ بدأ «مستر روتشستر» التحدث مطولاً عن حياته الخاصة ،انما تحدثَ عن مصاعبه بصورةٍ غامصةٍ ، لكنها أدركت بأنها مصاعب كبيرةٌ وقال لها :



– لقد ارتكبتُ خطأ في حياتي .. واني آسفٌ الآن أشدَّ الأسفِ .

عندها ، قالتْ « مس إيرْ » محاولةً أن تخفف عليه – ولو قولاً – عبءَ هذا الماضي التعسِ :

– لماذا لا تُصمِّم على تغيير حياتك الحاضرة .. بهذه الطريقةِ ستنسى الماضي وعذابهُ .

لم تعجبهُ هذه الفكرة كثيراً . لذا ، توقف فجأةً عن الكلام ، وخيل إليها أنه يحدثُ نفسهُ .. ولم يعدْ يشعر بوجودها في هذه اللحظات بالذاتِ .

دقت الساعةُ التاسعةَ مساءً ، التفتَ إليها وقال :

– مساءَ الخير .

وانصرفتْ مِس « إير » إلى غرفتها ، لتعيشَ حياةً جديدةً في عالم الأحلام والتمنّي .

* * *

ذاتَ يومٍ ، كانتْ «مس إيرْ» ، تتنزهُ مـع « آدِل » في الحـديقةِ ، اقتربَ منها « مستر روتشستر » وقالَ للفتاةِ الصغيرةِ :

- إذهبي والعبي مع « بايلُوثْ » .

ثم قالَ لمعلّـمتها :

- إني مشتاقٌ إلى حديثكِ اللطيف يا « مس إير » .

وهذه المرةُ أيضاً ، شرعَ هو بذاته يتحدث بإسهاب عن « آدل » وعن أمها وعن ماضيهِ :

- تُـدعى أمهـا « سِلينْ فارنسْ » . كانت مغنيةً وراقصةً ،والتقيْنا في باريس،أحببتُـها حباًصادقاًومخلصاً. وكانت تبادلني نفس الشعور ، وكم مرةٍ أكدت لي بأنها تحبني من أعماق قلبها . ولكن ، تخلّتْ عني ذات يوم ، وأحبتْ شخصاً آخر . ولم يمضِ وقتٌ طويلٌ حتى وافتها المنيةُ . هكذا، تُركت « آدل » وحيدةً في هذه



الدنيا المليئة بالشرور والآفات .. حيثُ تأكلُ السمكةُ الكبيرةُ السمكةَ الصغيرةَ .. فيتحول الفقير إلى سلعةٍ تُباعُ وتُشترى في سوق المصالح الفردية والأطماع البشرية الرخيصة . ليست آدل ابنتي ومع ذلك توليتُ أمرها كما يفعل الأب تجاه إبنته .

قالتْ « مس إير » :

- معكَ حق . عادت الوثنيةُ في ثوبٍ جديدٍ .. أصبح الإنسان يعبدُ اليوم لا الأصنامَ الجامدة التافهة بل المال الزائف العابرَ .. ككل شيءٍ في هذه الدنيا .

- لهذا السببِ صمّمْتُ على إبعاد « آدل » عن هـذا العـالم المضطرب .. وقررتُ الإعتناءَ بهـا في « ثورنفيلدهول » .

صمتَ قليلاً ثم قالَ مندهشاً :

- إنه لأمرٌ غريبٌ حقاً ! طلبتُ منكِ أن تحدثيني عن نفسك .. وبدأتُ أنا أحدثك عن كلِّ مـا يتعلق بحياتي الخاصة ، ولم يسبقْ لي أن حدثتُ أيَّ شخص بهذا الشكل . إنكِ امرأةٌ غير عادية يا « مس إير » ولاعجب

إن أخبرك كلُّ شخص عن أسراره من تلقاء نفسه .

لقد طالَ الحديثُ عن باريس وعن «سلين فارنس» إنما لاحظتْ «جين» بأنه لا يترددُ من إلقـاءِ نظرةٍ خاطفة من حينٍ إلى آخر إلى الطابق الثالث بحزنٍ بالغ . ثم يتابعِ حديثه شارداً ، حالماً . شعرتْ كأنه يحاول التفتيش عن منفذٍ للتخلص من هذا المأزق .. ولكنها لم تتوصل بعد إلى اكتشاف طبيعةِ هـذا المأزق . يوجد أمرٌ مـا في ثورنفيلد ، يزعج السيد «روتشستر» .. لا يصعبُ عليها قراءة الكراهيةِ والحزن وهي تنظر إلى عينيه ، لا يتعلّقُ الأمر «بسلين فارنس» .. بل يوجد سببٌ آخر .. أمرٌ آخر أشد خطورةً .. إنه أمرٌ راعبٌ وشاذٌ ! حبذا لو يبوحُ الآن بهذا السر الدفين، فيخلصها من هذا القلق القاتل الذي يلاحقها ليلاً نهاراً ، في هـذا البيتِ الواسع والمخيف حقاً .

رغم هـذا الكتمان المؤلم ، كانت تشعر بالراحة والإطمئنان وهي برفقةِ السيد «روتشستر» .. وتكررت اللقاءات بينهما في غرفة الجلوس حيناً ، وفي الحديقة حيناً



آخر .. وكانت «آدل» تبتعدُ عنهما فتفسح لهما المجـالَ للتحدثَ بحريّةٍ وبعفويـةٍ .. كان يحدثهـا عن اشخاص لا تعرفهم وعن أمـاكن مجهولةٍ ، وتوطدت الصداقة بينهما .. وبدأت تشعرُ بأنه يعاملهـا معاملة خاصة .. وتغيرت نظرتها إلى الحياة .. وتعرفت أخيراً إلى السعادة الحقة ، التي تنمو وتكبرُ كسنابل القمح تحتَ أشعة الشمسِ الدافئة ، وأصبحَ هذا الصديقُ الوحيد ، شغلها الشاغلَ ومصدرَ سعادتها بكلّ معنى الكلمة .

* * *

إندهشت « مسز فرفاكس » أيما دهشة عندما قرر «مستر روتشستر» البقاء في المنزل لمدة شهرين متواصلين، غير أن « مس إير » مدركة حقيقة الأمر ، ولولاها لما وجد سبباً للبقاء لحظة واحدة . وكم حاولت التعرف على الشيء الذي يكرهه ويؤلمه أشد الألم .. ولكن بدون فائدة ؟ هـذا لا يعني بأنه يقضي جميع أوقاته حزيناً شارداً .. بل بالعكس ، استطاعت المربية الشابة ، إبعاد شبح القلق والضجر عن حياته الحاضرة واستطاعت جذبه إلى شخصيتها المتواضعة والمتحررة من أية عقدة نفسية ، إنها واضحة كالنهار وصريحة كالطفل البريء ، لا تحب الكذب ولا الرياء .

رغم وجود هذه الصداقة المتينة بينهما ، إلا أنها لم تقدر على حل هذا اللغز المحير . عندما يتحدث معها ، تنفرج أسارير وجهه ويعاملها معاملة لطيفة للغاية ..



وعندما يخرج إلى الحـديقة ويلقي نظرة خاطفة إلى الطابق الثالث ، تتغير سحنته وتظهر علائم الكراهية والـكآبة واضحة على قسمات وجهه . كم مرة حدثت نفسها قائلة :

« متى أستطيع حـل هذا اللغز المحير ؟ إنه أمر غريب وعجيب حقاً ! » .

ذات ليلة ،عندما كانت مستلقية على فراشها وتفكر باستمرار ، بحالة هذا الرجل الغامض .. إذ بصوت شاذ ـ لا هو بالضحك ولا هو بالبكاء ـ يدوي في فراغ هـذا المنزل الكبير .. نهضت من فراشها خائفة .. ولـكن تلاشى الصوت فجأة .. إعتقدت للوهلة الأولى ، بأنها تحلم ، وبعد لحظات معدودة ، أحست بوجود يد بشرية وهي تفتح الباب . تسمرت في مكانها وقد سيطر عليها الوهم كليا ، وبعد جهد جهيد ، نطقت هذه الكلمات :

ـ من أنت ؟

وبقي السؤال بلا جواب ، ثم إبتسمت ابتسامة باهتة وحدثت نفسها : « هذا بالتأكيد الكلب «بايلوت »

رأيته مرةً وهو يجولُ في الممشى ، كم أنا سخيفة ، إني أخافُ بمجرَّد رؤية مسكة الباب وهي تتحرك ، ربما لم تتحرك .. كنتُ أحلم ، من يدري ؟ »

بعدَ ذلك ، عادتْ إلى فراشها وحاولت أن تنام . ولكن فجاةً دوَّى نفس الصوتِ بصورة أشد رعباً من ذي قبل ، ويصدر الصوتُ من مكانٍ قريبٍ من بابِ غرفتها : عندها ، بقيتْ جامِدةً كالجثة .. تحت لحافها ، ثم سمعت صوت وقعِ أقدامٍ ، بدا لها بأن شخصاً ما ، يتجهُ نحو الطابق الثالثِ . إستيقظتْ بهدؤ وخرجتْ أخيراً من غرفتها . يا للعجب ! رأت شمعةً قرب بابها ، من وضعها في هذا المكان ؟ ومتى ؟ . حدَّثتْ نفسها : « إني أشكُّ بانه صوتُ « غريسْ بوول » : لم ألاحظ بانها مجنونةٌ ، يمكن أن يكون كلُّ هذا .. حلماً .. لا أكثر ولا أقلّ . يجبُ أن أتَّصل الآن « بمسز فرفاكس » لا شك أنه حدثَ شيءٌ مريعٌ منذ لحظات .. في هذا البيتِ الغريبِ العجيبِ ! »

تصاعدَ الدخانُ من غرفةٍ مجاورةٍ . ربما يتصاعدُ من



غرفة « مسز روتشستر » إن البابَ مفتوحٌ .. لقد اشتمَّتْ « جين » رائحةَ حريقٍ : ماذا جرى في داخل غرفته ؟ وفي هذه اللحظة بالذات ، نَسِيَتْ «غريس بول» و « مسز فرفاكس » ، وركضتْ كالمجنونة في اتجاه غرفتهِ المحترقة ، وبدأتْ تصرخُ متوسلةً :

ـ إستيقظْ ! إستيقظْ !

هل فارقَ الحياةَ قبل أن تلتهمَ فراشه النار ؟ هل أصابتهُ الغيبوبة ؟.. وعلى الفور ، بدون أيِّ ترددٍ ، أسرعتْ إلى غرفة المرحاضِ وجاءت بسطلٍ من الماء .. وقذفتْ محتواهُ على السرير .. فانطفأت النار .. وبعد ذلك .. إستيقظَ « مستر روتشستر » .. كأنَّ شيئاً لم يكنْ ! بل صرخَ غاضباً :

ـ ما الخبرُ ؟ ماذا جرى ؟ إني مُبلَّلٌ .. لماذا وكيف ؟

أجابتْ « جين » خائفةً :

ـ يا سيِّدي .. كان سريركَ يحترقُ .. ولولا الماء لما انطفأت النارُ .



ـ هذا أنتِ يا « جين إير » ؟! ماذا تفعلين هنا ، في هذه الساعةِ المتأخرةِ من الليل ؟

عندها ، صاحتْ متوسلةً :

ـ آه ، أرجوكَ ، تعالَ معي يا سيدي ، لقد حدَث شيءٌ مريع منذُ لحظاتٍ . إنتظرْ سآتيكَ بالشمعة التي وجدتها قربَ باب غرفتي .

وهرعتْ نحو عتبة بابها ، لكنها لم تجدْ شيئاً . أينَ هي الشمعة ؟ وكيف إختفتْ ؟ من أخذها من هـذا المكان بهذه السرعةِ الخاطفة ؟

رجعتْ إلى غرفة « روتشستر » مستغربةً ، تائهةً . وسمعته يقول :

ـ ما هذا ؟ من فعلَ كلّ هذه الأمور ؟

أخبرتهُ كل شيء .. عن الصوت والشمعة والحريق. وكان ينصتُ إليها باهتمامٍ بالغٍ وقـد فارقت الابتسامة وجهه وحلّـت محلّـها قسماتُ الرصانة والقلق.

سألتهُ :

ـ لماذا لا نوقظُ « مسز فرفاكس » أو إحـدى الخادماتِ يا سيدي ؟

أجابَ على الفورِ :

ـ كلا . كلا . لا لزومَ لمثلِ هذا التدبير . الآنَ يا جين .. سأتركك هنا ، بعض الوقتِ ، إبقِ حيث أنتِ وسوف أرجع بعد قليل .

بقيتْ مكانهـــا بدون حراكٍ .. ولم تسمعْ سوى صوت وقعِ اقدام وهي متجهةٌ نحو الطابق الثالث . لقد طالَ غيابه وبدأ الخوفُ يسيطرُ على أعصابها ، وأخيراً رجعَ إليها وقد بدا وجهها جامداً ، أبيض . تأملهـــا قليلاً ثم قال بهدؤ :

ـ لقد اتضَّح لي كل شيء أخيراً .

سألته :

ـ مَنْ أشعَلَ النار يا سيدي ؟ ومن أطلقَ هـــذه الصرخةَ الغريبة المخيفة ؟ لقد فضَّلَ عدمَ الإجابةِ عن هذا السؤال لبرهةٍ وجيزةٍ .. ثم قالَ بعد ترددٍ ظاهرٍ :

ـ هل سمعتِ مثل هذا الصوت المخيف، قبل الآن ؟

أجابت مؤكدةً :

ـ أجل يا سيدي ، توجدُ إمرأةٌ وتدعى « غريسْ



بولْ » والتي تُعَلِّمُ الخادمات أشغال الإبرةِ .. إنها تسكنُ في الطابقِ الثالثِ ، قيل لي بأنها تضحكُ بهذا الشكل الغريبِ .. من حينٍ إلى آخر .

فقال مؤيداً :

ـ أجل يا « جين » معكِ حق، هذا صوت « غريس بول » . إنها تصابُ أحيانا بنوباتٍ من الجنون ، يا لها من امرأةٍ مسكينة! إنها تتصرفُ بشكلٍ غريبٍ ومخيفٍ من حين إلى آخر . وأحياناً تقومُ بأعمال شريرة وخطيرةٍ. وهذا ما فعلته هذه الليلة بالذات إن كل شيء على ما يرام الآن .. ثم لا أريد نشر الرعب بين الخدم يا « جين » .

أجابتْ :

ـ كلا .. يا سيدي ، لن اتفوهَ بأية كلمة بخصوص هذه الحادثة ، إني أعدكَ بذلك ، وأين ستنامُ الليلة ؟ إن سريرك مبلَّلٌ يا سيدي .

ـ سأنامُ على كرسي في غرفة المكتبة،سيطّلُ الصباح بعد قليلٍ .

ـ حسناً ؟.. كما تشاءُ .. مساءَ الخير يا سيدي .



قالَ بنبرةٍ حزينةٍ :

ـ ماذا ؟ هـل تنصرفينَ هكذا ، فوراً ؟ بفضلك نجوتُ من الموت المحتوم .. وهل يليقُ بكِ بعد هذا العمل النبيل،الانصرافَ بدون التفوّه بكلمة واحدة؟

أجابت :

ـ ولكنْ يا سيدي .. أوشكَ أن يبزُغَ الفجرُ .. وأنتَ بحاجةٍ إلى النوم .

دنا منها ، وأمسكَ يدَها وقال :

ـ جين ! كنتُ أعلم منذ لقائنا الأول بأنكِ جئتِ إلى هذا المنزل لتساعديني يوماً ما .. وجاءَ هذا اليوم ! منذ اللحظة الأولى ، أدركتُ بأننا سنسير معاً في طريق واحدةٍ مشتركةٍ . واليوم ، تأكّدَ لي ذلك أكثر من أي وقتٍ مضى .. مساء الخير يا عزيزتي « جين » .

إنصرفتْ عنه واتّجهت إلى غرفتها . لم يغمضْ لها جفنٌ بعد هذا التصريح الجميل الذي سمعته من لسان هذا الرجل الغـامض الحزين . لقد اعترفَ بالحب ولكن بصورة غير مباشرة ، وهل يسعها الآن أن تنامَ بعد أن غمرتها السعادة .. على حين غرّة ؟!.

في الصباحِ التالي ، بدأ الخَدَمُ بتنظيف الغرفةِ من البقايا التي خلّفها الحريق. أما « مستر روتشستر »،فقد أخبرَ « مسز فرفاكس » بأن الحريق ناتجٌ عن وجود شمعةٍ قرب سريره وقد نسيها مُضَاءَةً أثناء الليل.. وقال بانه حصلَ الحريق بينما كان غائراً في سباتٍ عميق.

ولكن مما أثارَ دهشةَ « جين » هو وجود « غريس بول » في غرفة « مستر روتشستر » في هـذا الصباح الباكر ، قررت الإقترابَ منها ومبادرتها ببعض الأسئلة المتعلقة بحادثة أمس ، لكنها تمالكت أعصابها ، ولزمت الصمتَ ، تماماً كما وعدت بذلك صاحب الدار ليلة البارحة . والغريب حقاً أنها تبدو هادئة ، طبيعية ، وهذا أمرٌ مدهشٌ حقاً .. كيف تبدو هكذا، مطمئنةً ، عاقلةً .. وقد حاولت بالأمس قتل « مستر روتشستر »!



وبدأت تفكرُ بكلامه المعسول وبيده التي وضعها بتحنانٍ على يدها .. واعتقدت نفسها بأنها تحلمُ .. وكم تمنَّت في هذه اللحظة ، الالتقاء به .. في قاعةِ الدرس مثلاً . ولكن ، « ما كلُ ما يتمنَّى المرء يدركهُ » .

أرادتْ التحدُّثَ معه بخصوص « غريس بول » ساورها الشكُّ بشأن هذه الخادمة المجنونة ، يقال بأنها تقومُ بأعمالٍ شاذَّة لكنها تبدو عكس ذلك تماماً . وعندما تناولت الشاي مساءً مع مسز فرفاكس ، قالت لها هذه الأخيرة :

ـ هل أنتِ على ما يرام يا عزيزتي ؟ إن وجهك شاحبٌ جداً . ما الخبر ؟

أجابتْ على الفورِ :

ـ إني في أحسن حالاتي يا « مسز فرفاكس » .

ـ لقد سافرَ « مستر روتشستر » .. واتمنَّى له التوفيقَ في سفره .

ـ سافرَ ؟! إلى أين ؟ ومتى ؟

ـ سافرَ اليوم صباحاً .. فوراً بعد الترويقة. لزيارة صديق له من « آل إشتونس » .

سألتها جين بنبرةٍ حزينةٍ :

ـ هل سيرجعُ اليومَ مساءً ؟

ـ كلاّ . أعتقدُ بأنه سيبقى هناك لمدّةِ أسبوعٍ . يوجدُ هناكَ عددٌ وفيرٌ من سيدات المجتمع . لا أعتقد بأنه سيرجعُ قبل أسبوعٍ يا مس « جين » .. أعتقد بأنكِ فهمتِ مغزى كلامي .. أليسَ كذلك ؟

أجابت جين مرتبكةً :

ـ كلاّ .. لم أفهمْ تماماً ، ما علاقة سفره المفاجىء بسيدات المجتمع ؟

ـ الأمر بسيطٌ للغاية ، تنتشرُ إشاعةٌ هذه الأيام وفحواها أن « مستر روتشستر » سيتزوج إحدى هذه السيدات وتدعى مس « بلانش إنغرام »

ومثلُ هذا الخبر أزعجها أيّما إزعاجٍ ،فامتنعَت عن الأكل أو الشرب ، حاولت إخفاء شعورها الشخصي .. لكنها لم تَستطِع ، بدأت الغيرة تتسربُ إلى قلبها ، وسيطرَ عليها اليأس وتمنّتْ لو تموتُ فترتاح من هذا العذاب الناتج عن حبٍ بلا أمل. كانهسراب ظَهرَ في صحراء حياتها ثم توارى فجاةً إلى غير رجعةٍ .



وفي الليلة التالية ، دخلتْ إلى غرفتها واستلقتْ على الفراش وبدأت تفكرُ ملياً بموضوع حبها مع « مستر روتشستر » . حدّثتْ نفسها قائلةً : « أنا فتاة بلهاء .. لا يمكنُ أن يحبَ صاحبُ الدار امرأةً تعملُ في بيتهِ كمربّية .. بالإجرة ، لم أنتبه لهذا الأمر قبل الآن . كم أنا بلهاء ! ثم لا يحقُ لي أن أكونَ غيورةً » .

ونامتْ نوماً مزعجاً حقاً .. وقررتْ عند الصباح عدم التفكير بامور « مستر روتشستر » وأقنعتِ نفسها بالأمر الواقع .. إذْ لا يمكن أن يحبها شخصٌ يتمتعُ بمستوى إجتماعي أرقى من مستواها .

* * *

إنقضى اسبوعٌ ولم يرجعْ « مستر روتشستر » عندها قالت « مسز فرفاكس » :

ـ أعتقد بانه سيسافر من « ميلكوتْ » إلى لندن . لقد سبقَ له أن فعلَ مثلَ ذلك قبل الآن .

وعندما سمعتْ مثل هذا الخبر ، شعرت « جين » بالحزنِ العميق وتمنّتْ لو يرجعُ إلى « ثورنفيلد »،لكنّها

حدثت نفسها مرةً أخرى : « أنتِ لستِ شيئاً بالنسبة لهُ ، أنت موظفةٌ عاديةٌ في بيته وهو سيدكِ .. لا أكثر ولا أقل » .

ومضى أسبوعٌ آخر . وذاتَ صباح ، وصلت رسالة إلى « ثورنفيلد » واستلمتها « مسز فرفاكس » بعد أن قرأتها قالت متنهدةً :

ـ حسناً ، يجبُ أن نحضر مادبةً عامرةً لحفلةٍ ساهرة سيقيمها « مستر روتشستر » قريبــاً ، على شرف مس « بلانشْ إنغرام » .

وحاولت « جين » أن تتظاهر باللاّمبـالاة ، وسالتها ببرودةٍ :

ـ إنه راجعٌ إلى البيتِ . أليسَ كذلك ؟

ـ أجل . إنهُ قادمٌ يوم الخميس ، سيكون برفقته عددٌ وفيرٌ من الأصدقاءِ والصديقاتِ .

أي بعد ثلاثة أيام ، تبدأ الحفلة الساهرةُ التي تحدثت عنها « مسز فرفاكس » . ودبَّ النشاط في جميع أرجاء البيتِ وبدأ كلُّ شخص يهتمُّ بالأمر الموكول إليه .



إنها المرةُ الأولى التي ترى فيها « جين » هذا المنزل الصامتَ مفعماً بالحيويـّة والحركة ، ولم تقِفْ « جـين » مكتوفة الأيدي بل إتجهت نحو المطبخ وبدأتْ بتحضير الطعام بشغفٍ ولذةٍ .. لقد انتهى حلمُها الجميل وآن الأوان لتجابهَ الواقعَ المريرَ : سيتزوجُ سيدها بعـد أيامٍ قليلةٍ .. « مس بلانش إنغرام » .. مـا العمل ؟ إنّ أفضلَ شيءٍ هو المساهمةُ في تحضير الطعام .. وبواسطة العمل وحده يستطيـع الإنسان أن ينسى عذابه الدّفين . أصبحت الآن مشغولةً جداً بحيثُ لا يفسحُ لها المجــال للتفكير بهموم سيدها ومشاريعه ومشاعره الخاصة .

أخيراً ، جــاء يومُ الثلاثاء . غمرَ الفرحُ كيانَ « آدِل » !.. للمرة الأولى في حياتهـــا .. تستقبل هذا الحشد من السيدات والسادة . تراها ترمقُ عربة الخيل بسرورٍ عظيمٍ : في الجهة الأمامية ، يمتطي أربعةُ أشخاصٍ الأحصنةَ ووراءهم تسيرُ مركبتان بفخرٍ واعتزازٍ [١] .

---

(١) وكان بعض الأشخاص الأثرياء يفضلون استعمال « رباعية الجياد » أي مركبة تجرها أربعة جياد . « Coach-and-four »

وأطلّت « جين إير » من النـــافذة فرأت « مستر روتشستر » وهو يمتطي حصانه .. ولم يكن بمفرده .. بل تجلسُ وراءه إمرأةٌ شقراء ، جميلةُ المظهر والقوام، ولا تفارقُ الابتسامة شفتيها .

إقتربت منها « مسز فرفاكس » وقالت كأنها تبوح بسرٍّ خطير :

ـ هذه هي الآنسة « إنغرامْ » التي حدثتك عنها .. سبحان الله ! كم تبدو جميلة !

وفي الليلة الأولى ، ظلت جين بصحبة « آدل » في الطابق الثالث ، بعيدةً عن الزوّار وأحاديثهم المتنوعةِ. كانت ترغبُ النزولَ إلى الطابقِ الأرضيِّ لتشاركهم في أفراحهم أو لتكون قريبةً منهم . على أيِّ حالٍ ، إنها تسمعُ الآن الأصوات المختلطة ، ثم صوتَ البيانو الناعم والذي يرافقه مغنّيان .. واستطاعت « جين » أن تلاحظ بأن الصوت الثاني يخصُّ « مسز روتشستر » .

وفي اليوم التالي ، خرجَ المدعوُّونَ والمدعوّات إلى الحديقةِ الغنّاءِ .. إنه فصلُ الربيع..وما ألذَّ التنزه في



هـــذا الفصل الباسم الدافىءِ .. ولم يعودوا من نزهتهم الحالمة .. إلاّ عند المساء . في هذا الوقت ، أرسل «مستر روتشستر » خادمةً إلى الطابق الثالث وقالَ لها :

ـ هلاّ تفضلتِ يا مس جين بعـــد تناول الغداء وبصحبتك « آدل » إلى غرفة الجلوس .

ـ ومن قالَ لكِ ذلك ؟

أجابت الخادمةُ مبتسمةً :

ـ « مستر روتشستر » !

في بداية الأمر ، تردّدت « جين » كثيراً.. وفضّلت عدمَ تلبية هذا الطلب المفاجىء،ولكن نزولاً عند إصرار « مسز فرفاكس » التي قالت لها بكلٍّ صراحة :

ـ إن السيد « روتشستر » يطلبُ منكِ أنتِ بوجهٍ خاصٍّ النزول إلى غرفة الجلوس لمشاركتهم في هـــذه الحفلة الساهرة .

وبعد هذا الإلحاح ، قرّرت « جين إير » الإتجّاه إلى المكان المحدد وبصحبتها آدل . حدثت نفسها وقد اعتراها بعض الخوف : « لا أعرفُ كيف اتصرفُ تجاه هـــذا

الحشدِ من عَليّة القوم .. أنا المربّية اليتيمة الفقيرة !؟»
أما آدل فقد بدا السرورُ واضحاً على قسمات وجههـــا
البريء.. بخاصةً عندما وجدت نفسها أخيراً أمامَ أجمل
سيدات المجتمع الراقي .

إلتفتتْ إلى مربيتها وقالتْ لها بفرحٍ :

– إنني أتذكرُ الآنَ أصدقاء وصديقات أمي ..
في باريس !

لم ينتهِ الضيوفُ من تناول الغداء .. عند وصولها
إلى غرفة الجلوس . فضّلت « جـــين » القعود صامتةً
شاردةً في زاويةٍ من الغرفة ، وكانت تتمنّـى من أعماق
قلبها ، لو لم يلاحظها أحدٌ في هذه اللحظات الحرجة .
ولم لا ؟.. إنهـــا المربيةُ الفقيرةُ .. التي تَرتدي ثوباً
متواضعاً .. بينما تمشي كلُّ سيدةٍ من هـــذه السيدات
الجميلات .. بخيلاءٍ وغرورٍ .. فثوبهـا البهيُّ الطويلُ
المزّينُ باللآلىء والدانتيل الحريري الثمين .. يَتحـدّاها
ضاحكاً بلونه الزاهي المدهش ، كانه يسخر من مظهر
« جين إير » القروي الساذج ومن ثوبهـــا التقليدي



الكئيب .. وكانت تحدّثُ نفسها وهي تتأمل من الزاوية
المظلمة هذا النموذج من المجتمع الزاخر بالجاه والذي يتميز
عن سواهُ بالغرور والإدّعاء : « ولستُ غنيةً مثلهن ..
لكنني فاضلةٌ ، وما أزالُ في مقتبل العمر .. ماهمّـني إذا
كنت لا أرتدي الثوب الحريري الغـالي .. إن الفضيلة
لا تميز بين أصحاب الخيوط الباليةِ والحريرِ الغالي ! » .

* * *

لمّا جرى حوارٌ بين « جين » ومستر روتشستر » ، اتضحَ لها بأنه لا يحبُ مس « بلانش إنغرام » وبالتالي لقد عدلَ عن فكرة الزواج منها . ويرجعُ سببُ ذلك إلى وضعه المادي . عندما إطلعتْ « مس بلانش » على رأسماله المتواضع ، تراجعت عن فكرة الزواج.. وذهبت كما أتت، عزباء حالمةً برجلٍ يتمتعُ بالجاه والثروة الطائلة.
أُصيبَ « مستر روتشستر » بخيبةِ الأمل عندما جـابهَ الواقعَ التالي : إن « مس بلانش » إمرأة أرستقراطيةٌ جميلةٌ ، لكنها ما عرفت الحبَّ أبداً طيل حياتها . إنهـا تبحثُ عن المال .. لا عن زوج تحبهُ ويحبها . ولا عجب إن صرّحَ عن حبه للمربية الفقيرة . صدقتهُ « جين » وفرحتْ فرحاً عظيماً ، واتفقا على يوم الأحد ، للذهاب سوياً إلى الكنيسة . في هذه الأثناء ، زاره رجلٌ يدعى « ماسون » واستضافه ليلةً واحدةً.. وأثناء الليل طُعِنَ



بخنجرٍ بينما كان نائماً .. ودبَّ الرعبُ من جديد في قلب « جين إير » .. من طعنهُ ولماذا ؟ هـــل يوجد شبحٌ شريرٌ في هـــذا البيت الواسع ، فيهجم على الإنسان ساعةَ غفلةٍ ؟

حاولتْ جين أن تكشفَ سرَّ هذه الجريمة النكراء.. ولكن بدون جدوى ، والحمد لله !.. لم يمتْ الزائر .. لقد أُصيبَ بيده فقط ، ويا ليته مات ! لأن بسببه سوف يتحولُ حلم « جين » إلى تعاسةٍ وسوفَ تعودُ الغيومُ الملبدةُ لتغطي سماءَ حياتها الصافية السعيدة .

وعندما وصلتها رسالةٌ من « إليزا » إبنة خالتها ، إندهشت أشدَّ الدهشة ، إذْ طالَ زمن الغربة . ومن جعلها تفكرُ بها بعد هذا الغياب الطويل ؟ ثم ، جعلتها الرسالة تفكرُ بالماضي الكئيب المتعلق بخـالتها الظالمةِ وأبعدَ عنها في الوقت الحــاضر همومَ دار « مستر روتشستر» وأعمال الشبح الخفية الراعبة أغلب الأحيان.

وطلبتْ منها « إليزا » في الرسالة ، الحضور بسرعةٍ قبل أن تفارقَ الخالةُ الدنيا ، ولا يليقُ بها إهمالَ هـذا

الواجب العائلي حتى ولو كانت خالتها لا تستحقُ أصلاً مثل هذا الإهتمام .

ولما أخبرت « مستر روتشستر » بمضمون الرسالةِ وحدثتهُ عن عزمها السفر .. أُصيب بصدمة ..وتمنّى لو تبقى معه للأبد بخاصة بعد أن صرحَ لها عن حبهِ الصادق وعن مشاعره النبيلة تجاه شخصها الكريم. ودعته حزينةً وارتحلت إلى « غِتسهدهول » .. ولكن صورة حبيبها لا تفارقُ مخيلتها لحظةً واحدةً ، إنها تحبه حباً جارفاً وطاهراً..ولن تدعَ أي عاشقٍ يمنعها عن الوصول إلى هدفها النبيل . لقد وجدتْ فارس أحلامها ولن تدعَ أيٍّ شخصٍ في الدنيا ، يبعدها عن طريقه . سوف تعودُ إليه بأقصى سرعةٍ ممكنةٍ . مثلُ هذه الأفكار راودتها وهي تنتقلُ في عربة خيلٍ من « تورنفيلد » إلى « غتسهدهول ».

واستطاعتْ أن تصلَ في الوقت المناسب . لقد دنتْ خالتها من شفير الموتِ . رأتْ « جين » أخيراً .. وخافت أن تترك الدنيا بدون أن تقوم بعملٍ مشكور..



في لحظاتها الأخيرة . بعد جهدٍ جهيدٍ قالت لها « مسز ريدْ » وهي مستلقيةٌ على فراش الموتِ :

ـ أردتُ أن أراكِ منذ مدةٍ طويلة. لقد ارتكبتُ خطأً بحقكِ ، وأودُ توضيحَ الأمر الآن، إفتحي جارور الطاولة .. ستجدين في داخله رسالةً قديمةً .. واقرئيها .

كم كانتْ دهشتها بالغةً عندما قرأت ما يلي :

« عزيزتي مسز ريدْ .

من فضلكِ ، إبعثي لي عنوان إبنةِ أخي، «جين إير» إني مقيم حالياً في « مادرا » وحبذا لو تأتي « جين » وتسكن معي . إني رجلُ عجوز وبدون أولاد. لذلك ، عندما تأتي « جين إير » ، ستعيشُ في داري كإبنةٍ لي وعندما أموتُ ، ستصبح كلُّ ثروتي ملكاً لها .

المخلص

« جون إير »

ويعودُ تاريخ هذه الرسالة إلى ثلاث سنوات مضت !

لم تتمالك نفسها فقالت لخالتها غاضبةً :

ـ لماذا لم تخبريني عن هذه الرسالة ؟

أجابت الخالة بصراحة :

ـ كنت اكرهك يا « جين » . لم أستطع نسيان اقوالك الجارحة التي كنت تتلفظين بها .. فيما مضى . كنت أتمنى أن تعيشي طيل عمرك بعيدة عن عمك . لا يحق لك أن ترثي أموال عمك بينما يقضي أولادي عمرهم في الفقر والعوز . توقفت عن الكلام وبدأت تسعل بشكل مخيف ، ثم قالت وهي تلهث :

ـ الماء .. أين الماء ؟

أسرعت « جين » وجاءت بكوب من الماء ومدت يدها وهي تقول لها :

ـ لماذا لا تنسين هذا الحقد القديم يا مسز ريد؟ تفوهت بهذه الكلمات الجارحة ، يوم كنت طفلة . أما الآن ..

لم تابه لكلامها ، بل قاطعتها قائلة :

ـ كتبت رسالة إلى عمك وأخبرته بانك توفيت من داء التيفوس في « لوود » . كنت أتمنى لك التعاسة. كم كنت شريرة أيام الطفولة، كنت اكرهك وما أزال !

قالت « جين » :



ـ ولكن .. يجب أن تنسي الماضي . وإني أرغب الآن مصادقتك ، هل سمحت لي بقبلة .

وما كادت جين تقترب من خالتها لتقبلها حتى ابتعدت عنها وأدارت ظهرها ولزمت الصمت بينما علائم الكراهية مرتسمة بوضوح على قسمات وجهها الباهت كوجه الموتى الذين ودعوا الحياة منذ لحظات قليلة .

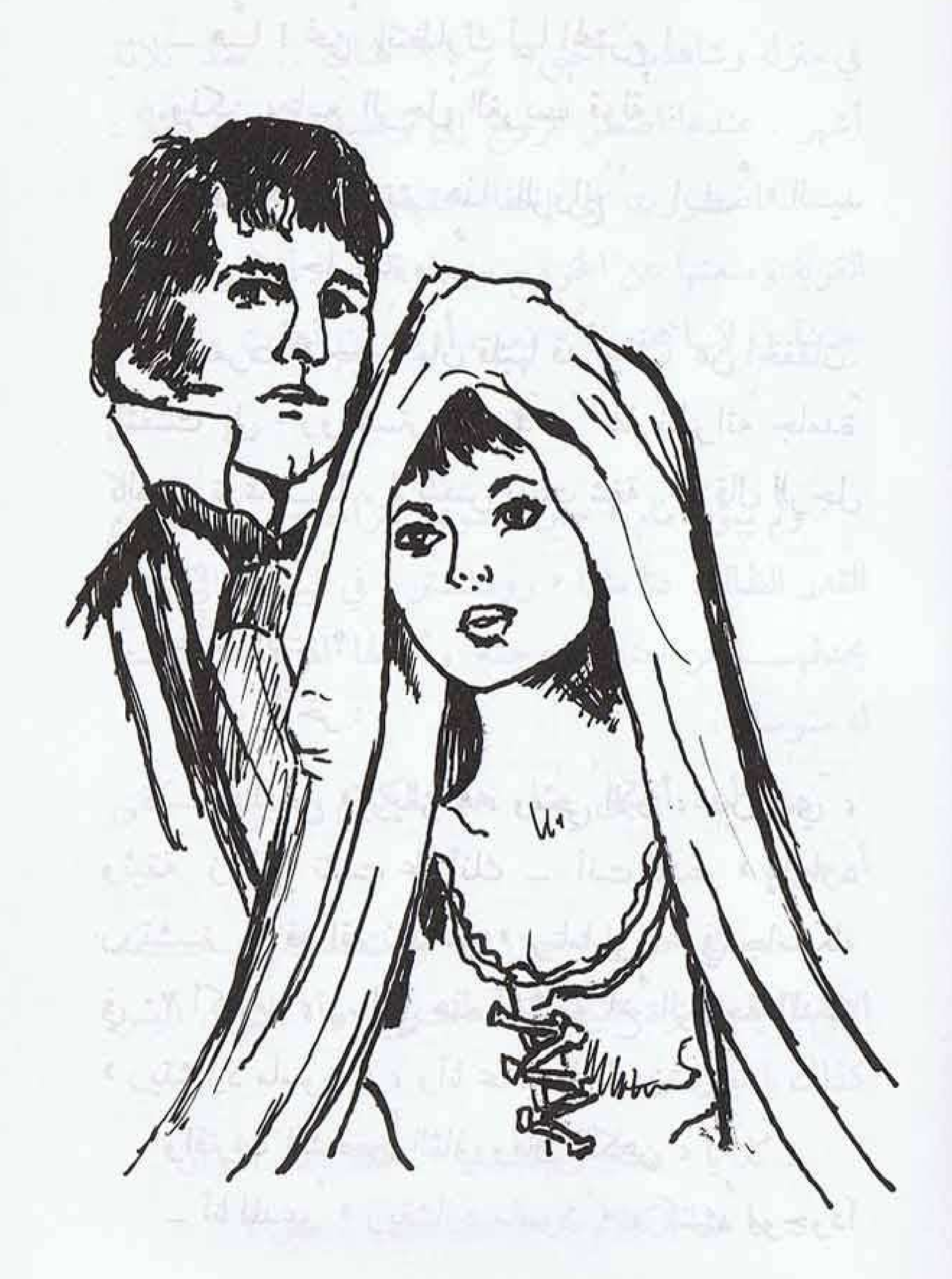
وعند ساعة متأخرة من الليل ، دخلت « بسي » إلى غرفة جين وقالت لها بهدوء :

ـ ماتت « مسز ريد » .

واتجهت على الفور إلى غرفة خالتها الميتة. وقفت إلى جانب جورجيانا وإليزا حول سريرها ، ولم يذرف أحدهن أية دمعة على هذا الفراق .

* * *

منذ طفولتها ، زارها العذاب وبات صديقها الوفي وأنيسها المفضل.. إلى أن شع نور الحب في سمائها



المكفهرة .. أصبح « روتشستر » أملها الوحيد . وعند رجوعها إلى « ثورنفيلد »، شعرت بأن السعادة تنتظرها بفارغ صبرٍ . بالفعل ، استقبلها حبيبها المشتاق بسرور بالغٍ واتفقا على تحديد يوم قريب للزواج السعيد .

وعلمتْ « مسز فرفاكس » بالأمر ففرحتْ كثيراً وانتشر الخبرُ بسرعة البرق بين جميع الاشخاص الذين يعملون في دار السيد « روتشستر » ، وحانَ أخيراً الموعد المنتظر .

عند الصباح الباكر ذهبتْ « جين » برفقة « مستر روتشستر » إلى الكنيسة المجاورة للبيت ، وما هي إلاّ لحظاتٌ معدودة حتى وصلِ الـكاهن .. اقتربَ منه « روتشستر » وفجأةً ظهر شخصٌ غريبٌ .. فدخلَ إلى الكنيسة متجهاً نحو المذبح ، قائلاً بصوتٍ عالٍ وبنبرةٍ آمرة :

– قف أيها المحترم ! لا يمكن أن يتم الزواج .

لم يلتفتْ « روتشستر » الى الرجل الغريب بل نظرَ إلى الكاهن وقالَ آمراً :

- هيــا ! نحنُ بانتظارك أيها المحترم !

ولكن ، تابعَ الرجلُ الغريبُ قولهُ :

- لا يمكنَ أنْ يتم هذا الزواجُ . انَّ « السيد روتشستر » رجلٌ متزوج .

وشعرتْ « جين » بأن قلبها قد توقفَ عن الخفقان. إلتفتتْ إلى « روتشستر » ، بدَتْ لها نظراتهُ جامدةً كالصخرةِ تمامــاً . لم ينبس ببنت شفة . ثم قال للرجل الغريبِ :

- من أنتَ ؟

أجابَ الآخر :

- إني أُدعى « بريغز » ، ومعي الآن ، بين يديّ ، وثيقةَ زواجٍ تثبت على أنك - أنت المدعو « إدوارد روتشستر » ، قد اقترنتَ من « برتاماسون » في جامايكا، في ٢٠ أكتوبر ، وسلمني هذه الوثيقةَ أخُ الزوجةِ المدعو « ريتشارد ماسون » ، وأنا محاميه في لندن .

واقتربَ الشخصُ الثاني وقالَ للكاهن :

- أنا المدعوُ « ريتشارد ماسون » ، كنتُ موجوداً



في منزله وشاهدتُ أختي « برْتا » هناك .. منذ ثلاثةِ أشهر . عندها اضطر الزوجُ إلى توضيحِ الأمر ، قائلاً :

- اضطررتُ إلى إخفاء حقيقة الأمر عن أبنــاءِ القرية ومنعتها عن الخروج من غرفتها .. أتعلمون لماذا ؟ حسناً .. لأنها مجنونةٌ . نعم ، أُريدُ أن أهربَ منها .

* * *

ولم يبقَ أمام « جين » سوى التراجعِ والإستسلام للقدر الظالم . دنا منها « روتشستر » في اليوم التالي وبدأ يحدثهــا عن جنون زوجته وأعمالها المرعبة ، فقالت له متوسلةً :

- لم أعدْ أطيقُ مثل هذا الكلام يا سيدي ، كفى أرجوك .

- معكِ حق يا « جين » ، لن نتحدَّث عن هــذه الايام الماضية مرةً ثانيــةً ، أنتِ لي وأنا لكِ .. أليس كذلك يا جين ؟

- كلا يا « مستر روتشستر » . لقد فاتَ الأوان .

- ما هذا الكلامُ ؟ هل سترحلينَ يا جين ؟

أجابت بصراحةَ :

ـ أجل يا سيدي .. إني راحلةٌ .

ـ حسناً . إرحلي .. ولكنْ لا تنسي حبي وهيامي بك . لن أتخلى عن حبِّك ما حييت ، أنتِ حياتي ، انتِ كلُّ شيءٍ بالنسبة لي يا جين . وشرع يبكي كالطفل اليتيم .

قبلَ أن ترحلَ ، رجعتْ إلى الوراء ، دنتْ منهُ ، قبّلتْ خدهُ بتحنان ، لامستْ شعره بيدها المرتجفة ثم قالتْ بحزنٍ بليغٍ :

ـ ليباركك الله يا عزيزي ، أرجو أن يساعدكَ الله في محنتك هذه . حاولَ أن يضمّها إلى صدره ، لكنها فرّت من بين يديه كالغزالة الشاردة وهي تقولُ للمرة الأخيرة والدموع تنهمرُ من مقلتيها :

ـ وداعاً .. وداعاً يا حبي .. للأبد .

إنصرفتْ عنه وارتحلت وهي تحملُ بين ضلوعها فؤاداً باكياً في صمتٍ وكبرياء .

* * *



في تلك الليلة ، سيطرَ القلقْ على جين إير كلَّ السيطرة واعتقدت بأنها غيرَ قادرةٍ على النوم إطلاقاً .
ولكنها ما كادتْ أن تضع رأسها على الوسادة حتى استرسلتْ في نومٍ عميقٍ . وفي سباتها ،راودَها منام جميلٌ ،شجعها على مقاومة مصاعب الحياةِ بعزمٍوإصرار .
وشعرتْ بحيوية الأمل تدبُّ من جديد في عروقها .
واستيقظتْ باكراً جداً في الصباح التالي وقرّرت الإبتعاد عن « ثورنفيلد » وعن « مستر روتشستر » بلا أي تردُّد « والعجلةُ محمودةٌ في الخير » . وهي أفضل طريقةٍ للتخلُّص أخيراً من كابوس هذا العذاب الدائم ، ولم تجد إلاَّ الهربَ خيرَ وسيلةٍ لوضع ختامٍ لهذا الحب اليائس.
لذلك ، ارادتْ أن ترحلَ في هذا الوقت المبكر ، قبلَ أن يستفيقَ أي شخص في هذا المنزل الفسيح الراعب . لم تجلب معها شيئاً ، سوى بعض المال وبعض الطعام .

ومرَّت كاللص الحـائر ، قربَ غرفة مستر روتشستر وسمعتْ وقع أقدامه وهو يذرعُ الغرفةَ(١) جيئةً وذهاباً. تمنَّتْ في هذه اللحظة لو تفتح بابه وتتجه نحوه .. لكنها تدركُ بأن مثل هذه الرغبةِ غير معقولة ، يجبُ أن يسيطر العقلُ على عواطفهـا الجَّياشة ، فالرحيلُ بلا وداعٍ أفضل حلٍّ وأشرفه . وخطرَ ببالها سؤالٌ حزينٌ وهي تتجهُ خائفةً نحو عالمها الجديد : « ما عساهُ يفعل بعد رحيلي ؟.. بعد هذا الهرب المفاجىء ؟ » .

وبعد أن اجتازت عتبةَ باب الخروج ، إنهمرت الدموعُ رقراقةً من مقلتيها،إلتفتتْ إلى الوراء وحدَّثت نفسها بحزنٍ بليغٍ : « يا مستر روتشستر ، سأحبك حتى يوم مماتي »(٢) .

وانطلقتْ مسرعةً ، تائهـةً شاردةً ، لا تلوي على شيء .

---

(١) يجتاز ارضية الغرفة في اتجاهين معاكسين
To walk up and down .
(٢) I will love you until the dayi die



وفي الخارج ، تبدو السماءَ صافية الأديم والشمس مشرقةً .. ولكن ، هل تملكُ جين إير الوقت الـكافي للتمتع بهذا المشهد المشرق الصافي ؟ كلُّ همها هو الابتعادُ بأسرع وقتٍ ممكن من هذا الجحيم اللعين .. وهي تعلمُ حقَّ العلم بانها تهربُ من حبها ولكن إلى أين ؟ وهـل تستطيعُ الإنتصارَ على حبها الجـارف بالهرب من دار العشيق ؟

إتجهتْ مسرعةً نحو الطريق التي تبعدهـا عن « ميلكوتْ » .. هذه الطريق تؤدي في النهاية إلى مدينةٍ حيثُ لا تعرفُ أحداً..حيثُ تسير في الشوارع وحيدةً غريبة ، متمايلةً كالطيف الهزيل ، شاردةً كوريقة خريفٍ في مهب الريح ، لا أحد يعرفها في هذه المدينة الغريبة.. كذلك لا أحد يعرفُ مستر روتشستر .

إرتاحتْ قليلاً قبلَ أن تصلَ إلى الطريق العـام . وبعد لأيٍ من الوقتِ ، سمعتْ صوتَ عربة خيلٍ ، تاتي من بعيد ، وعندما اقـتربتْ منها ، صاحت باعلى صوتها ، فتوقفَ سائقُ العربة وقالت له :

- أودُّ الذهابَ معك .. بعيداً عن « ثورنفيلد » .

صمتت قليلاً ثم سألته مرتبكة :

- أُريدُ الذهاب إلى المدينة .. هل يكفي عشرين شِلينغ ؟ [1]

لم يكنْ هذا المبلغ كافياً لنقل جين إير من «ثورنفيلد» إلى المدينة أي مسافة يومين كاملين، ولكن بادرته قائلةً :

- هذا كلُّ ما أملكهُ . ماذا قلت ؟

- هيا .. إصعدي .

وصعدتْ إلى العربة تاركةً وراءها حبها الوحيد .. للأبد .

* * *

وبعدَ انقضاءِ يومين من السفر بالعربة وصلتْ جين إير إلى وسط المدينة .. وقال لها السائق :

- لا أستطيعُ أن أنقلكِ إلى مسافة أطول .. بالنسبة لمبلغ العشرين شيلينغ !

(١) الشلن : ١/٢٠ من الجنيه الاسترليني **Shilling**



أصبحتْ الآن حرةً ، وحيدةً ، سقفها النجومُ ومضجعها عند الليل ، الطبيعة الهادئةُ . ولكن هـذه الحرية المنشودة لا تكفي لحلٍّ مشكلتها الأليمة . حدَّثتْ نفسها بحيرةٍ وكآبة : « ما العمل الآن ؟ لا أملك شروى نقير . إلى أين الرحيل؟ لا أستطيعُ دفعَ ثمن ليلة واحدة في أرخص فندقٍ مِنْ فنادقِ المدينة ! » .

إنها تشعرُ في هذا المساء بالدفءِ والراحة .. لم تكن الليلةُ باردة .. رغم هذا الدفء وهذه الحرية كانت تشعر بالقلق والضياع وكان الفؤاد بارداً بسبب شبح الحزن الذي لا يفارقه لحظةً واحدة .

واستيقظتْ صباحاً مـع بزوغ الشمس واتجهتَ شاردةً نحو الشرق . وأنشبَ اليأسُ مخالبه الحـادة في أعماق نفسها الحائرة .. وتمنَّت الموتَ ، ولـكن الحياةَ غاليةٌ .. فظلَّتْ مشتاقةً إلى مشاهدة بصيصِ أملٍ بينَ هذه الغيوم الملبدةِ من التعاسة والشقاء ، إنها بحاجة إلى عملٍ وإلى طعام .

سارتْ ساعاتٍ طويـلة إلى أن وصلتْ أخـيراً إلى

قرية . وتقع هذه القرية في وادٍ جميل وتبدو هـــادئةً ومضيافةً بينما أشعة الشمس تغازلها وتضفي عليها جواً من الإطمئنان والثقة ، ولكن غالباً ما تخدعُ المظاهر . وهل كلُّ ما يلمعُ هو ذَهب ؟ سالت المسكينة عدداً وفيراً من الناس : « أين أجدُ عملاً مؤقتاً .. كي أكسبَ قوتي اليومي ؟ » ولا أحد يستطيعُ مساعدتها .. إنما لا أحد يحاول أن يقدمَ أي نوعٍ من المساعدة لهذه الفتاة المشرّدة الجائعة. وأنّى يفكرُ أحدٌ بتعاستها في هذه القرية الجميلة جداً والقاسية جداً .. ما دامَ كلُّ واحدٍ ينعمُ بالدفءِ ويأكلُ ويشبعُ ولا يخطر بباله بأن هذه الفتاة بحاجة إلى لقمة خبزٍ لتسدَّ رمقها قبل أن يقضي عليها شبحُ الفقر وتجذبهـــا مخالبُ اليأس إلى الإنتحار . البعضُ منهم لاطَفوها بالكلام اللائق واعتذروا بلباقة . وإن اكبرَ عدوٍ للإنسان المحتاج هو الكلام المعسول والوعود الكاذبة. وهل يبعدُ عنها الكلام المعسول شبحَ المرض والجوع والموتِ المحتوم ؟ ومـــا أكثر هؤلاء الأشخاص الذينَ يتكلمون كثيراً وينصحونَ على الدوام ولا يقدّمون مليّاً



واحداً للشخص الذي ينصحونه وينتقدونه ويتمنون له الصحةَ والثروةَ والجاه !

إزاءَ هذا الرفض القاطعِ وهـــذه القساوةِ المخزية ، شعرت جين إير بأنها وحيدةٌ في هذا الكون ومنعزلةٌ كلياً ، لم تجد شخصاً واحداً مستعداً لمساعدتها . حاولت أن تطلبَ بعضَ الطعام من هؤلاء الغرباء لكنها ترددت في البدايةِ ثم تمنّعتْ وفضلّت البقاءَ خـــاوية البطن ، منتظرةً دمعةَ رحمةٍ بين هذه الصخور الباردة .. بين هذه القلوب المغلقة ، أشدَّ إغلاقاً من بابِ القبر !

وتساءلتْ ودمعةٌ رقراقةٌ تنسابُ على خَدِّهـــا الشاحب : « وماذا بوسعي أن أفعلَ بعد الآن ؟ » .

***

وأخيراً قررتْ تركَ هذه القرية الهادئة وسكانها الذين لا يَرحمون معذباً ولا يبالون بجائع ، واتجهت نحو حقلٍ رحبٍ .. وهناك التقتْ مزارعاً طيِّبَ القلب . كان يتناولُ طعامه المكوَّن من الخبز والجبن .. فاعطاها بعضَ قوته . وهي أول لقمة تتناولها « جين إير » بعد هذا الرحيل المُفاجيء .

وتوارت الشمسُ وخيّم الظلامُ على البلدة . حاولت أن تنامَ في الهواءِ الطلق تحتَ النجومِ الساهرة .. ولكن البردَ الشديدَ منعها من تحقيق أمنيتها .. وبعد لحظاتٍ تلبدت السماءُ وهطل المطر . وتابعت السيرَ من جديد بلا هدفٍ وبلا أمل، وسيطرَ عليها التعبُ وبدتْ علائم الإرهاق والحيرة واضحةً على قسمات وجهها . وفجأةً ، رأت نوراً خفيفاً صادراً من بعيد ، حدّثت نفسها مندهشةً : « هل هذا حلمٌ أم حقيقة » .



واستمّرت تسيرُ في الظلام متهالكةً ، متسائلةً .. في اتجاه النّور الخافتِ إلى أن وصلت قرب منزلٍ ريفي صغير، تحيطهُ حديقةٌ غنّاء. وجّهتْ نظرها نحو النافذة فشاهدت صبيّتين وامرأة عجوزاً داخل الغرفة المضيئة، يبدو بأنهنّ يتبادلن أطرافَ الحديث .. ويبدو بأن المرأةَ العجوز هي خادمة هذا المنزل . وبقيتْ هكذا ، واقفةً ، جامدةً ، لا تتحركُ ولا تحاول أن تقتربَ من الباب .. ظلت مشدوهةً تائهةً .. وبعد تردُّدٍ ، اتجهت نحو الباب وطرقتْ عليه بهدوء .. وهل تملكُ القوة الكافية لتطرق بيدها على الباب ؟ عندها دوّى نباحُ كلبٍ من الداخل ، وبعد لحظات دنتْ من العتبة إمرأة عجوز وقالت لها بغضبٍ :

ـ ماذا تُريدين ؟.. لماذا أنتِ وحيدة في هذه الساعة المتأخرة من الليل ؟ إنه أمرٌ غريبٌ حقاً !

ـ أرجوكِ .. أرجوكِ ، إني غريبةٌ ولا أعرف أحداً ، هلاّ أعطيتني قطعة خبزٍ ؟ هل أستطيعُ النومَ هنا ؟

أجابت المرأةُ العجوز بنبرةٍ جافَّةٍ :

ـ سأعطيكِ بعضَ الخبز ، ولكنكِ لا تستطيعينَ النوم هنـــا أيتها الصبيَّة ، إننا لا نعرفُ عنك شيئاً . من أنتِ ؟ لا أحد يعلم ، ربمـا جئتِ إلينا وبصحبتكِ بعضُ الأصدقاء الأشرار ، ربما يأتونَ عند المساء ليقضوا علينا ونحنُ نيام !

إنصرفتْ عنها ثم رجعتْ إليها بعد دقائقَ معدودة وبيدها قطعةُ خبزٍ . أعطتها إياها ثم اقفلت البـابَ في وجهها بقوةٍ وقالت بنبرةٍ جافةٍ :

ـ والآن .. هيـــا إرحلي من هنا وإلاَّ سارسل الكلب وراءكِ .

قالت بهدوءٍ وبنبرةٍ يائسةٍ :

ـ لم يبقَ لي سوى الموت .. وليس باليد حيلة .

وحاولتْ أن تتَّجهَ خارجَ الحـــديقة ولكن بلا جدوى .. فانهارتْ متهالكةً على أحـــدِ درجات سلَّمِ المنزل . وفي هذه اللحظة بالذات ، سمعتْ وقـعَ أقدامٍ وصوتَ رجلٍ وهو يقول :



ـ كلا . كلا . لن أدعكِ تموتينَ على عتبةِ بابي .

لم تَستَـطِـعْ رؤيةَ الرجل الذي يتحدثُ معها ، لكنه يَبْـدو صوت شابٍّ ، طرقَ على البـــاب بقوةٍ وصاح باعلى صوته :

ـ هيَّـا .. بسرعةٍ يا « هَنا » .. إفتحي البابَ ، توجدُ امرأةٌ فقيرةٌ هنا .. يجبُ مساعدتها على الفور .

أجابت المرأةُ العجوز بارتباكٍ :

ـ أعرف يا سيدي ، لقد طلبتُ منها الإبتعاد عن هذا المكان . بدتْ لي إمرأة خطرة .

أجابَ الرجلُ معترضاً :

ـ لا أعتقدُ ذلك يا « هنا » تعالي وساعديها لتدخلَ إلى البيتِ . لا يعقلُ أن نتركها هنا على عتبة الباب .

ساعدَهـــا الإثنان للوقوف على قدميها ودخلت إلى صحن الدار ، وهرعَت الصبيَّتان نحوهـــا . سالتْ إحدى الصبيَّتين :

ـ من هذه يا « سانتْ جُـون » ؟

أجابَ الرجلُ :

ـ لا أعرف يا « ديانا » .

قالت الصبيةُ الثانية:

ـ يالمسكينة ! كم تبدو شاحبةَ اللونِ ونحيلة ! هل هي جائعةٌ أم مريضةٌ ؟

أجابَ الرجلُ :

ـ أعتقد بأنها جائعة .

ثم التفت إلى الخادمة العجوز وقال آمراً :

ـ أجلبي بعضَ الخبز وبعضَ الحليب لهـذه المرأة المسكينة .

جلست قرب النار وقدّموا لهـا الخبزَ الساخنَ والحليبَ ، وعندما استعادت قوّتها ، وجّه إليها الرجل الغريبُ بعض الاسئلة :

ـ ما هو اسمُكِ ؟

ـ جين إليوت .

ثم سالها عن بيتها وعن صديقاتهـا وعن عائلتها ، لكنها فضلّت عدمَ الاجابة بل قالتْ له بلطفٍ :

ـ أُفضّل يا سيدي عـدمَ الإجابة الآن ، ساخبركَ كلَّ شيءٍ فيما بعد .



عندها، إنصرف الرجلُ والصبيّتان ثم رجعتْ صبيّةٌ وقالت للخادمة العجوز بنبرةٍ هادئة :

ـ يجبُ أن تقضي هذه الليلة معنا .. يا للمسكينة ، لا يمكن طردُها خارج الدار ، إن الطقسَ باردٌ جداً .

واخيراً وجدت المساعدة المرجُوّة ، وللمرة الأولى بعد ثلاثة أيام ، تنامُ على سريرٍ مريحٍ ودافىء .

وظلّت طريحة الفراش لمدة ثلاثة أيامٍ متتالية ، ولم تستطعْ أن تتحرّك ، بإمكانها أن تسمع وتفهم كلامَ الناس فيما حولها ، لكنها لا تقدرُ على التكلّمِ ، ولم يهملها جميع أفراد العائلة .. وكانت « ديانا » تزورها مرةً أو مرتين في اليوم الواحد، كذلك ماري، لكن أخ الصبيّتين زارها مرةً واحدةً وقال لها :

ـ أنتِ لستِ مريضةً ، لكنك تعبةٌ فقط ، يجب أن تستريحي .

وفي اليوم الثالث ، إستيقظتْ باكراً وابتسامـةُ العافية تعلو شفتيها واتّجهتْ نحوَ المطبخ وكانت «هنا» تصنعُ الخبز ، وبدتْ مندهشةً لدى رؤية « جين إير » .

وكانت نبرتها في البداية مع جين ، جافةً للغاية .. ولكن
بعد لأيٍ من الوقت ، غيرتْ رأيها العجوز ، وأخبرت
جين بأن العائلة التي ساعدتها ، تدعى « ريفرز » ويدعى
المنزلُ « دار مور »(١) . هذا البيب هو ملك والدهم ،
لكنه توفى منذ ثلاثة أسابيع ، واجتمعَ شملُ
أفرادِ العائلة بسبب وفاته ، إن سانت جون ، كاهن في
« مورتون » ، القرية التي قصدتها « جين » في بداية الأمر
ولم تجدْ شخصاً واحداً مستعداً لتقديم الطعام لها ، أما
ماري وديانا،فهما قريبتان لعائلةٍ ثريّةٍ في جنوبي إنكلترا.

وبعد ساعةٍ ، وصلت الفتاتان ، وسانت جون ،
وتناولَ الجميعُ الشاي في غرفة الجلوس . وطرح عليها
الكاهن عدةَ أسئلةٍ .. لكنها لم تقدّمْ جميعَ الأجوبة
المطلوبة .. بل اكتفتْ بالرد على البعض منها. رغم ذلك،
أيقن « سانت جون » بأنها امرأةٌ شريفةٌ . عندها ، قال
لها مبتسماً ابتسامةَ الرضى :

— حسناً .. سابحثُ لكِ عن مهنةٍ تناسِبُك .

---

(١) Moor House



وتوطّدتْ أواصرُ الصداقة بين جين والأختينِ
اللطيفتين ، وابتعدَ عنها شبحُ الحزن والقلق أثناء
إقامتها المؤقتةِ في هذا المنزل الريفي الصغير .

وعندما يعيشُ الإنسان سعيداً ، تمرُّ الأيامُ مسرعةً .
وهذا ما حصلَ لجين إير التي شعرت بالسعادة والطمأنينة
بجوار أفراد هذه العائلة . وكانتْ تقضي أوقاتَ الفراغ
في المطالعة والرسم والتّنزهِ في القرية . رغم هذه المتعةِ
المؤقتة، لم يفارق الحزنُ فؤادها،أما طباع «سانت جون»
فمختلفةٌ بالنسبة للفتاتين الصبيتين ، انه رجلٌ رزينٌ
ويعملُ بجدٍّ ونشاطٍ لمساعدة سكان قرية « مورتون »
إنه ذكي مثلُ أُختيه لكنه يحملُ بين ضلوعه حزناً
دفيناً دائماً .

مضى على جين إير شهرٌ بكامله وهي تعيش مطمئنّةَ
البال ، في ضيافة عائلة « ريفرز » . لقد انتهت فترةُ
العطلة السنوية بالنسبةِ لماري وديانا وقررتا العودةَ إلى
مقرِّ عملهما ، كذلك « سانت جون » قرَّر الرجوعَ إلى
بيته الخاص في مورثون . آن الأوان كي تفكر جدّياً

بشان مستقبلها . حدثت نفسها حائرةً : « ما عسايَ أن أفعل الآن ؟ إلى أين الذهاب ؟ لم يقلْ « سانت جون » شيئاً ، منذ اليوم الذي تركتُ فيه فراش المرض » .

ذاتَ صباحٍ ، كانت موجودةً وحيدةً في غرفةِ الجلوس ، اقتربَ منها القسّ « سانت جون » وقالَ لها:

– وجدتُ شيئاً يهمكِ ، إنما لن تروقَ لكِ الفكرة تماماً . لقد قدّمَ لي أحد الأغنياء مالاً لتأسيس مدرسة للفتيات في القرية في مورتون ، هل تودّين إستلامَ مركز رئيسة المدرسة ؟ لقد أسست مدرسةً للصبيان في السنة الماضية واليوم أريدُ تشييدَ مدرسةٍ ثانية للفتيات ، إني لا أنوي البقاء طويلاً في مورتون لكني أودُ مساعدة القرية بقدر المستطاع . لقد وجدتُ بناية خاصة لتأسيس المدرسة وتوجد إلى جانبها غرفتان صالحتان للمعلمة . لن تكون مدرسة كبيرة . سوف يقتصر التعليمُ على المطالعة والكتابة وأشغال الإبرة ، سيكون العمل شيّقاً حقاً. ما رأيك ؟ هل ترغبين القيام بمثلِ هذا العمل ؟

أجابت بلا تردُّدٍ :



– أجل يا سيدي، كم يسعدني القيامَ بمثلِ هذا العمل.

ولم تنطقْ جين إير بهذا الجواب بصورةٍ لا واعية.. بل أدركتْ تمامَ الإدراك أهمية الدور التربوي الذي حدثها عنه القسُّ سانت جون ، ربما لن يكون أمر التعليم شيقاً جداً ، لكنه سيفيد حتماً اهالي القرية . ستكون حياتها هادئة ومفيدة . ومن يدري ، ربما إذا اشتغلتْ بجدٍ ونشاطٍ ، ستنسى الماضي وهمومه .

إندهشَ سانت جون لأنها قبلتْ فوراً ، ثم ابتسم ابتسامةً لطيفةً وقال فرحاً :

– حسناً .. ستُباشرين عملكِ فورَ ذهابِ ماري وديانا من المنزل .

وفي اليوم الأخير من فترة العطلة ، وصلتْ رسالةٌ إلى سانتْ جون ، فضَّ الرسالة وقرأها، ولم ينطق بكلمة واحدة ، بل أعطاها لماري ولديانا . عندما انتهتْ ديانا من قراءتها ، صاحتْ :

– لقد ماتَ العمُّ جون .

أجابَ القسّ بنبرةٍ حزينةٍ :

ـ أجلْ.. وأوصى بثروته إلى شخصٍ آخر !.

وخيّم السكونُ والحزنُ على الوجوهِ الثلاثة. عندها قالت ماري بنبرةٍ غاضبةٍ :

ـ حسناً ، نستطيعُ أن نعيشَ بلا مساعدته ، كنا نعيشُ بلا عونه وما نزالُ حتى هذه اللحظة بالذات .

تركَ « سانتْ جون » الغرفة ، بينما التفتتْ «ديانا» إلى جين إير وقالتْ لها :

ـ أعتذرُ لما بدرَ منا الآن يا جين.

صمتت قليلاً ثم تابعتْ قائلةً :

ـ لم نعرفْ أبداً العم جون ، إنه أخُ والدتي ، لقد تخاصمَ مع والدي منذُ سنواتٍ طويلة . لقد فقد والدي كلّ ثروته بسببِ العم جون وفيما بعد، أصبح العمُّ جون ثرياً جداً ، وكان يأملُ والدي لو يخصّص عمي ماله لنا بعد موته . ليس عنده أولاد ، لكنهُ تركَ ثروته بكاملها لشخصٍ آخر . بالطبع ، يحقُّ له أن يعطي مـــاله لمن يشاء .. ولكن حدثَ عكسَ ما كنا نتوقعه .

***



لم تتردَّد جين في قبولِ العرض الذي قــدَّمه لها سانت جون بخصوص استلام وظيفه معلمةٍ في المدرسة الجديدة.. اذْ تذكرَتْ هذا القول المأثورَ : « سرُّ النجاحِ فى الحياة هو أن يتاهبَ المرء دائماً لاغتنام الفرص حين تتاحُ له » . أليس مثل هذا الإقتراح ، وسيلةً لتحويل حياتها التعيسةِ إلىعيشٍ مفعمٍ بالحيوية والنشاط،والعملُ وحده قادرٌ على طرد شبح الحزن واليأس من فؤاد هذه الفتاة المسكينة . بالفعـــل ، شرعت بالعمل كمربيةٍ في مدرسة الفتيات ، وقدّم لها بيتٌ خاصٌ . إنه صغيرٌ ، لا يهم ، لكنهُ بيتها الخاص ، إنها تشعرُ بالسعادة بعدهذا الشقاء وهذا التعبِ .

بدأت بتعليم ثلاثين تلميذة ، كلُّهن يجهلن الكتابة ويوجدُ بينهن ثلاث فتيات يعرفنَ القراءةَ . ولم يكن العملُ سهلاً في البداية . البعضُ منهن لا يتقبّلن العلمَ

إلا بصعوبةٍ ولكن البعضَ الآخرِ، يتميزون بحبهن للعلم.
وبفضل هذه الفئة من المجتهدات ، رغبتْ في متابعـة
جهودها في التوجيه والتعليم .

ولا يمكن القولُ بأنها شعرت بالسعادة التـامة في
الشهور الأولى في مورثون ، كان العملُ مرهقاً جداً ،
وكانت تبكي مراراً في السِر ، في غرفتها المنعزلة، عندما
يأتي المساءُ وتطلُ عليها الذكريات . لا تستطيع أن
تنسى مستر روتشستر ، وكانت تحدّثُ نفسها قلقةً ،
خائفةً : « يا تُرى .. هل فعلَ شيئاً ما ؟ . هل ارتكبَ
أية حماقةٍ بعد رحيلي المفاجىء ؟ » .

ولكنها، كانت تعتقدَ في قرارة نفسها بأنها لم تخطىء
في عملها هـذا .. يومَ قررت الهرب من دار مستر
روتشستر .. إذْ لا يمكن أن تعيشَ مـع حبيبها بينما
زوجته ما تزال حيةً ترزق . لو ذهبتْ معه إلى فرنسا
ـ نزولاً عند رغبته ـ لتحوّل الحبُ بعـد حينٍ إلى
كراهيةٍ . ومثلُ هذا التفكير ، يساعدها على التخفيف
من آلامها وأحزانها . حسناً فعلت ، عندما تركت بيتَ



الحبيب وفرّت بعيدةً عن دياره، وهل يوجدُ حلُ آخر
سوى الهرب بأقصى سرعةٍ ممكنة ؟ .

وبفضل عملها المتواصل في مدرسة القرية ، نسيت
أغلبَ الاوقات همومَ الحب وأحزانه ، وبالأخص عندما
أثمرت اعمالها النشيطة وأعطت النتائجَ المرجوّة ، إنها
مغتبطةٌ من طالباتها المجتهدات. وبدأت تعلمهن فن الرسم
واللغة الفرنسية ، وفرحَ اهالي الطالبات لهـذه النتائج
الباهرة .. وكم اضطرت إلى زيارة بيوتهم بعد إلحـاح
ودعواتٍ متكررة ، فاصبحت الصديقة المفضلة لديهم
جميعاً . وما أسعد الإنسان الذي يعيش مطمئنَ البال بين
الأصدقاء المخلصين . وكم كانت « جين إير » مفتقرةً إلى
مثل هذه الصداقة الحميمة في عزلتها وتعاستها .

* * *

ومرّتْ شهورٌ ، وعاد الشتاءُ من جـديدٍ ببردهِ
ومطره وغيومه الـكئيبة ، وظلَّ سانت جون يزورُ
جين في المدرسة ، مرةً أو مرتين في الأسبوع الواحد ،
وبعضَ الأحيان، يزورها في بيتها ، عند المساء، وكالعادة

يتبادلان أطرافَ الحــديث الذي يدور حول الكتب الحديثة والقديمة والمسائل المدرسية وأحياناً يحدثها عن نفسه بإسهابٍ وصراحةٍ ، وأخبرها مرةً بأنه يودُّ أن يصبح مبشّراً. لقد قرّر السفر إلى بلاد الهند ليحدّث الناس عن الإله ، جل جلاله. لذلك ، قرّر ترك موروثون في القريب العاجل .. وبعد رحيله إلى الهند .. لن يعود أبداً إلى انكلترا ، سيكونُ الذهاب بلا عودةٍ إلى الوطن الأم. لا يرغبُ شيئاً في هذه الدنيا الفانية سوى التبشير.. ولا شيء يمنعه عن تنفيذ رغبته هــذه . حدثت جين نفسها وهي تستمع إلى حديثه الطويل : « انه رجــل غريب وقاسٍ ، لا أستطيع أن أفهم مغزى هذا التصرّف. لماذا يترك أُختيه بهذا الشكل، ويتخلّى عن قريته ووطنه بلا أيّ تردد ، بوسعه أن يكون رجلاً صالحاً ومفيداً في بيته وفي وطنه بالذات ، إنه لا يحتاجُ إلى مهنة التبشير في بلادِ الهند » .

* * *



ذاتَ مساء ، في شهر تشرين الثاني ، زارها القسُّ في بيتها الريفي الصغير . وكانتْ وقتذاك، منهمكةً في رسمِ صورةٍ فنيةٍ ؛ دنا منها صامتاً ، وأخذ يتأملُ الصورة باهتمام بالغ ، ثم اتجهَ نحو الكرسي ليجلس ، وبقيِ هكذا صامتاً لمدة نصف ساعة ، ثم انتصبَ واقفاً واقترب منها ومدّ يدهُ على الصورة ومزّق قطعةً صغيرةً من جهة الزاوية . إندهشتْ « جين إير » لمثل هــذا التصرُّف الغريب . في الواقع ، غالباً ما يقومُ بمثل هــذه الأعمال الغريبة بصورةٍ لا واعية .

* * *

وفي ساعةٍ متأخرة من ذلك المساء ، تساقطَ الثلجُ وهبّت العاصفة . وفي اليوم التالي عمّ الــبردُ الشديدُ أرجاء القرية من أقصاها إلى أدناها وانتشر الريحُ الباردُ

في كل مكان وغطى الثلج بكثافته الملحوظة معظم الأشياء والاشكال في القرية النائمة الساكنة .

وبعد أن عادت « جين » من المدرسة ، جلست على مقعد قرب الموقد ، لتطالع كتاباً ، وغابت لمدة ساعة تقريباً في عالم الكتاب الجديد . وفي هذا الوقت المتاخر من الليل ، سمعت طرقاً على الباب ، حدثت نفسها مستغربة : «من هو القادم في هذا الليل البارد؟» فتحت الباب وظهر أمامها القس سانت جون .

سألته على الفور :

– ماذا جرى ؟ هل حدث أيُّ مكروه ؟

أجاب بهدوء :

– إني أقضي النهار وحيداً وأرغب التحدث مع صديقة .

إندهشت جين إير لمثل هذا الجواب ، إذ تعلم بأن سانت جون هو من الاشخاص الذين يفضلون العيش في عزلة ولا يبحثون إطلاقاً عن صديق أو صديقة . ما الذي جعله يتكلم بهذا الشكل غير المألوف ؟



واتجه نحو الكرسي وجلس كعادته صامتاً ، شارداً . وارادت « جين إير » توجيه السؤال التالي : « قدومك في هذا الوقت وفي هذا الطقس المطير البارد ، أمر غير مألوف . . فماذا تريد صراحة » ؟ لكنها فضلت عدم توجيه مثل هذا السؤال بل اكتفت بالنظر إليه مستغربة صامتة ، وبعد لحظات معدودة ، سحب من جيبه رسالة وبدأ بقراءتها بتأنٍّ وحذر ، ثم وضعها ثانية في جيبه . أطرق رأسه مفكراً ثم قال :

– لقد اكتشفت في الليلة السابقة أمراً غريباً ، جئتك اليوم لتوضحي لي مثل هذا الأمر الغريب .

وظلَّ كلامه غامضاً وملغزاً بالنسبة لها ، وظلت مصغية له ، صامتة ، عله يفسر الأمر بشكل أوضح . تردد قليلاً ثم قال كأنه يعترف بسر خطير :

– من الأفضل لو أخبرتك القصة على حقيقتها ، ليست غريبة عنك ، أتريدين أن أسردها لك مرة ثانية .

وما يزال الأمر غامضاً بالنسبة لها ، لكنها أجابت بلطف :

– أجل . . أجل .

منذُ عشرينَ سنة ، أحبَّ قس إبنة رجلٍ ثري ، رفضَ أهلها مثلَ هذا الزواج ، لكنها قررتْ أن تلبي نداءَ قلبها العاشق .. فتزوجته رغم معارضة الأهل . وبعدَ سنتين ماتتْ هي ، ثم لحقها زوجها الفقير إلى المثوى الأخير . تركا بعد موتها ، طفلة يتيمة .. فتمَّ إرسالها إلى منزل عمها الثري .. عند مستر ومسز ريد، في « غِتسهيد » .

صمتَ قليلاً ثم قال :

ـ ما الذي جعلك مندهشة بهذا الشكل ، يا جين ؟..

لم ينتظرْ منها جواباً ، بل تابعَ قائلاً :

ـ هل كانتْ سعيدةً ، أم تعيسةً في بيتِ عمها وزوجة عمها .. لستُ أدري ؟ جُل ما أعلم ، أنها ذهبتْ إلى مدرسة « لوُودْ » وهي في العاشرة من عمرها . إنكِ تعرفين هذه المدرسة .. لأنك كنتِ هناك .. أليسَ



كذلك ؟ يا للغرابة ! إن قصة هذه اليتيمة ، تشبه قصتكِ تماماً ، على أي حال ، إني أُفضلُ متابعةَ حديثي هذا . عند الثامنة عشرة من عمرها ، تركتْ « لوُودْ » . ذهبتْ لتعمل كمربيةٍ في منزلٍ يدعى « ثورنفيلدهول » أشرفتْ هناكَ على تربية فتاة صغيرة ، وتدعى الفتاةُ الصغيرة : « آدلْ فارنس » .

عندها ، صاحت « جين » متوسلةً :

ـ آهِ يا سانتْ جون ! أرجوك ، كفى ! كفى !

ـ كلا يا جين ، أُريدكِ أن تسمعي القصة حتى النهاية : يملك « ثورنفيلدهول» شخصٌ يدعى «روتشستر» لا أعلم الكثيرَ عنه لكنّني أعلم بانه طلبَ يدَ المربية الصبية للزواج ، لم ترفضْ طلبه، ولكن قبل عقدالقران بلحظات، إكتشفتْ بالصدفة بانه رجلٌ متزوجٌ ! زوجته مجنونة ، لكنها ما تزال حيةً ترزق . لا أعرفُ ما فعله «روتشستر» عندما اكتُشِفَ سرهُ قبل الزواج من الصبية! في ذلك المساء ، تركت المربية « ثورنفيلدهول » واختفى أثرها منذُ ذلك الحين . وبدأ التفتيشُ عنها في كل مكان،

ولم يعثرْ عليها أحدٌ . حصلتُ على كل هـذه المعلومات بفضل المحامي المقيم في لندن .. مستر « بريغس » . إنها قصةٌ غريبةٌ وحزينةٌ يا جين .. أليسَ كذلك ؟

سألتهُ جين بتلهف وبنبرة يائسة :

ـ قُلْ لي يا سانت جون .. ماذا حـــلَّ بمستر روتشستر ؟ أينَ هوِ الآن ؟ كيف حـــاله ؟ لا بد أنك تعرفُ شيئاً ما،عنهُ .. أرجوك .. قل لي ماذا حلَّ به؟

أجابَ سانت جون.

ـ بودي لو أعرفُ شيئاً عنه .. ولكن ، ألا ترغبين معرفة إسم المربية في هذه القصة التي سردتها لكِ ؟

سألته جين :

ـ هلِ كتبَ «مستر بريغس » رسالة لمستر روتشستر؟ هل بعث مستر روتشستر بالجواب ؟

أجاب القس :

ـ أجـل .. ارسل مستر بريغس رسالة لمستر روتشستر . ولـكن ، كتبت الجواب أمرأة .. تدعى « أليس فيرفاكسْ » .



صمت قليلا وقد تملكته الحيرة ثم قال :

ـ حسناً .. إذا شئتِ عـدمَ البوح باسم المربية .. سأذكر لكِ الإسمَ بنفسي .

سحبَ قطعةَ ورق من جيبه ، وقدّمها لجين ، وقرأت الإسم : « جين إير ! » وتابعَ موضحاً :

ـ حدثني « بريغس » في رسالته ، عن فتاة تدعى « جين إير » .. اني اعرف فتاة تدعى « جين إليوت » وبدأتُ أتساءل : من أين جئتِ ، ومن انتِ ؟ الآن ، أعرف الجواب . جين إير هو إسمك الحقيقي ، أليس كذلك ؟ . أجابتْ على الفور :

ـ أجل . أجل . قلْ لي يا سانت جون ، هل أستطيعُ مراسلةَ مستر بريغس ؟ هل يفيدني بمعلوماتٍ عن مستر روتشستر ؟

ـ لا أعتقد ذلكَ يا جينْ . لا داعي الآن للإهتمام بمستر روتشستر . إني أحملُ إليكِ خبراً هاما جداً . أتعلمين لماذا راسلني مستر بريغس ؟

أجابت مندهشة :

- كلا .

قال سانت جون بنبرةٍ هادئةٍ :

راسلني بخصوص عمك ، « جون إير » المقيم في « ماديرا » ، لقد توفي ، وأنتِ الآن امرأةٌ غنيةٌ .

صاحت مرتبكة :

- انا ؟.. غنية ؟

- أجل ، أنتِ .. غنيةٌ .. غنيةٌ جداً . لقد تركَ لكِ ثروةً بقيمة ٢٠،٠٠٠ إسترليني .

في بداية الأمر ، لم تصدّق نفسها ، إعتقدتْ بأنها تحلم ، ثم شعرتْ بالحزن العميق لأن هذا العمّ المتوفي ، هو الوحيد من بينِ أفرادِ العائلةِ الذي اهتمّ بها فوهبَها ماله لتُجابه همومَ الحياة وتنجو من ذُلِّ السؤالِ ، كم تمنتْ لو تلتقي به ولو مرةً واحدةً في حياتها. في الواقعِ، لم تفكّر في المال في بداية الأمر ، بل تمنّت أن تلتقي به والتعرفَ عليه قبل أن يعاجله الموتُ . بالطبع ، لم يدم طويلاً مثلُ هـذا الشعورِ الحزين، لأن ثروة ٢٠،٠٠٠ إسترليني، جعلتها تنظرُ إلى الحياة نظرة الأمل والسعادة



بفضل هذا المبلغِ المحترمِ ، سيصبح العيش أقل صعوبةً .

رغم ذلك، ظلت تشعرُ من حين إلى آخر بالحزن والقلق لأنها فقدتْ عمها الوحيد في العائلة .

سألها سانت جون :

- حسناً يا جين ، يبدو أنكِ غير مهتمة كثيراً بهذه الثروة .. إنه لأمرٌ غريبٌ حقاً ! أترفضين هذه النعمة ؟

- كلا . كلا . اني مسرورة لهذا النبأ .

وحاولتْ أن تفسرَ لهُ حقيقة شعورها تجاهَ هذا الموقف الطارىء ، لكنها فضلت التزامَ الصمت .. لعلهُ لن يدركَ حقيقة الأمر .

إنتصب واقفاً ، إبتعدَ عن الكرسي ، ثم قال :

- أرجو أن تكوني مرتاحةً في وحدتك هذه، كنت أودُّ إرسالَ « هَنَا » لكن عدلتُ عن رأيي بسبب رداءة الطقس والثلج . كما تعلمين، إنها عجوز ولا يمكنهامقاومة مثل هذه الأمور .

وما كادَ يطأ عتبةَ الباب ، حتى قالتْ لهُ جين مستغربةً :

ـ سانت جون .. لماذا راسلكَ أنتَ بالذات ، مستر بريغس ؟

إبتسمَ وأجابَ :

ـ آه ! إني كاهنُ الرعية، وعادةً ما تطرح مثل هذه الأمور على كاهن الرعية .

ـ كلا . لم يُقنعني هـــذا الجواب . بالتاكيد ، لم يراسلْ مستر بريغس كلَّ كاهن رعية في إنكلترا !

قالَ بنبرةٍ لطيفةٍ :

ـ إنها قصةٌ غريبةٌ كلَّ الغرابة .. يا جين ، لا أودُّ التحدثَ عنها بنفسي ، أتركُ أمرَ توضيح القضية إلى « ديانا » أو « ماري » .

عندها صاحتْ :

ـ ولكني اودُّ معرفـــة الحقيقة الآن ! ارجوك يا سانت جون .. أرجوك ، كنْ صريحاً معي !

قال :

ـ حسناً ، ساخبرك الحقيقة ، ربمـــا قمتِ بعمل طائش إذا لم أُصارحك بالأمر . هل تعلمين بأن إسمي هو



سانت جون إير ريفرز ؟

ـ كلا .

تابعَ موضحاً :

ـ إسمُ أُمي هو « إير » لديها أخان ، الأخ الأول ، كاهنٌ ، وقد تزوج من مس جين ريد في « غتسهيدْ » الأخ الثاني ، هو جون إير ، المقيم في « ماديريا » ومستر بريغس هو محامي جون إير وقدراسلني في الشهرالفائت، هل تذكرين ؟ حدثني عن وفاة عمي ، وأخبرني بأن عمي خصَّص الميراث لشخص آخر . وبعـد عدة اسابيع ، إستلمتُ رسالة أُخرى من مستر بريغس ، قال لي بأنه لم يعثرْ على الفتاة التي تستحقُ الميراث وسالني إذا كنتُ أعرفُ شيئاً عنها . وبالصدفة ، وقعَ بصري ليلة أمس على إسمك .. على ورقة الرسم تلك .

حاولَ أن ينصرف ، إنما دنت منه جين وقالتْ له :

ـ لحظة من فضلك يا سانت جون . لا تنصرف . دعني أفهمُ أمراً هـــاماً : إن أمك هي أُخت والدي .. أليسَ كذلك ؟

ـ أجل .

ـ فهي إذن عمتي ؟

ـ أجل .

ـ أنتَ وديانا وماري .. أبناء عمتي .. أليس كذلك؟

ـ أجل . نحن أبناء العمة .

نظرتْ إليه بدهشةٍ بالغةٍ وبفرحٍ عظيمٍ . يا لهذا الموقف الرائع ! وأخيراً ، لقــد وجدتْ بعضَ أفرادِ عائلتها. كم هي مسرورة ومغتبطة في هذه اللحظة بالذات. لقد عاشتْ طيلَ عمرها يتيمةً ، شاردةً ، لم تتعرفْ في حياتها قط إلى أي نوعٍ من الحب أو الحنان العائلي،وفجأةً عثرتْ على ثلاثة أشخاص. هم أقرب الناس إليها وأكثرهم لطفاً . وأحلى من هــذا وذاك ، أنها عاشرتْ هؤلاء الأشخاص الطيبين وأحبتهم قبل أن تكتشف أمر القرابة !

تنهدّتْ وصاحتْ مغتبطةً :

ـ آه يا سانت جون ! كم أنا مسرورةٌ ! كم أنا مسرورةٌ !

إبتسمَ سانت جون وقال :



ـ أنتِ يا جــين أغرب فتاةٍ صادفتُها في حياتي ! عندما أخبرتكِ بأنكِ غنية ، لم تفرحي لهذا النبأ. والآن عندما علمتِ بأننا أولاد عمتك ، كاد يصيبك الجنون من شِدَّة الفرحِ .

ثم ضحك عالياً كأنه يحدّثُ نفسه :

ـ حقاً .. اني لا أفهمكِ إطلاقاً .

حاولت ان تقول له بكل صراحة :

« أنتَ غير قادرٍ على إدراكِ سرِ سعادتي لأنك لم تعش وحيداً ومشرداً مرةً واحدةً في حياتك ». لكنها آثرتْ التزام الصمت .. وهكذا كان .

وفضّلت معالجة موضوع الإرثِ في هـذه اللحظةِ بالذات . حدّثتْ نفسها : « إني الفتاةُ التي أخذت مال العم جون من درب سانت جون وماري وديانا . يجبُ أن أجدَ خطةً نبيلةً على الفور . نحن الآن أربعة أولاد عم ، إذا احتفظتُ بالمال لوحدي ، سأحيا حزينة ، قلقةً وسيعيش اولاد عمتي فقراء . أفضل حل : توزيع المال بالتساوي بيننا جميعاً » .

وبلا تردد ، إلتفتت إلى سانت جون ، وأفصَحت لهُ عن أفكارها تلك . في البداية ، لم ترق له مثلُ هـذه الفكرة ، وقال لها ناصحاً :

– صدقيني ، ستندمين فيما بعد .

وتناقشا موضوع توزيع الثروة لمدةٍ طويلةٍ . وفي النهاية ، أبدى موافقته واقتنعَ بموقفها الإنساني النبيل ، وبدتْ علائمُ الإمتنانوالغبطة واضحةً على قسمات وجهه وهذا أمر متوقع بالنسبة لجين ، الفتاة اليتيمة المعذبة . منذ طفولتها وهي تهفو إلى عمل الخـــير ونشر المحبة الصافية بين الصديقات والخلان . وما قيمة الانسان ، إذا احتفظ بماله وخسر خلانه ، إن المرء غنيٌ بكرمـــه ، والكرمُ نسبي . ثم، « إليس الغني البخيل افقر من الفقير الكريم ؟ فانظر ، ما قيمة غني يكون الفقر أغنى منه ».

* * *

وقبل أن ينصرف سانت جون إلى منزله عند ساعةٍ متأخرةٍ من الليل ، قال لجين :



– حسناً يا جين .. المدرسة ؟ هـل نقفلها في اليوم التالي على الفور ؟

أجابَتْ معترضةً :

– آه ! كلا . كلا.ساظل أمارسُ مهمتي حتى العثور على مُربيةٍ أُخرى .

راقَهُ مثلُ هذا الجواب ، إبتسَمَ مُغتبطاً وقال :

– شكراً . هذا نبلٌ منك . والآن ، أتمنى لك نوماً هنيئاً يا ابنةَ العم .

* * *

وفي يوم عيد الميـــلاد ، تمّ توزيع الثروة ٢٠،٠٠٠ إسترليني بالتساوي بين سانت جون وديانا وماري .

وقبلَ اسبوع من عيد الميـــلاد ، أُقفلت مدرسة الفتيات لأجل العطلة . وبعد انتهاء العطلة المدرسية ، حلّتْ محـل جين إير معلمة أخرى . وشعرت جـين بالحزن وهي تبتعد عن مدرسة القرية .. لأنها تبتعد عن بعض الصديقات الطيبات لكنها تعلم حقّ العـلمِ بأن سعادةً أخرى بانتظارها في مكان آخر . أما ديانا وماري فقد رجعتا إلى البيت نهائياً .. بعد أن حصلتا على حصتهما من الميراث، قررّتا عدم متابعة مهنتهما كمربيّتين.

وقبل أُسبوعٍ من عيد الميلاد ، ذهبت جين و « هنا » إلى المنزل « مورهاوسْ » ، اشترتْ بعضَ الأغراض الجديد الخاصة بالبيت وبدأت بتنظيفه رأساً على عقب بحماس بالٍ .



واخيراً حلّ اليوم الموعود.. اذْ وصلَ سانت جون من « مورثون » للإجتماع باختيه ، لقد قرّر قضاء عطلة عيد الميلاد في منزل « مورهاوسْ » .

وصلت ماري وديانا عند الساعةِ الرابعة بعد الظهر . كم كانت جين مسرورة لهـــذا اللقاء العائلي ! وانقضت الأسابيعِ التالية بفرحٍ وطمانينةٍ ، وأخذت كل واحدةٍ تتحدث عن ماضيهـــا بصراحةٍ وبشغف ، كذلك عن مشاريـع المستقبل القريب والبعيد ، أما سانت جون فلم يُشاركهن في الأحاديث باي شكلٍ من الأشكال معتقداً بأن مثل هذه الأحاديث انما هي مضيعة للوقت ، والمعلوم أنه قد تغيـّر تماماً حينما عرف بأن جين هي إبنة عمه .. مع أنه قد وعدَها وقتها ، بانه سيعاملها كأخته الثالثة في البيت .. ولكنه بدأ يتصرّف تجاهَها ببرودةٍ ولا مبالاة . وغالباً ما كان يُراقبها سراً وهي غارقةٌ في عالم المطالعة ، ولا يحاول أن ينطقَ بكلمةٍ واحدة !

وبعد عطلة عيد الميلاد، ساد الهدوء والسكينة ارجاء المنزل « مورهاوسْ » ، وقرّر سانت جون البقاء في

هذا المنزل حتى يوم رحيله من انكلترا ، وهذه هي رغبة
أختيه : قضاء الأشهر الأخيرة قبـل سفره ، قربهما ..
وبإمكانه كذلك القيام بمهمة كاهن الرعية في القرية .

أما جين ، فقد بدأتْ تتعلم اللغة الألمانية مـع ديانا
وعادت إلى مزاولة مهنة الرسم الزيتي والرسم المائي .
وكانت تذهبُ مرةً في الأسبوع إلى مورتون ، لمشاهدة
طالباتها في المدرسة ، ومثل هـذه الزيارات الأسبوعية ،
تُدخل السرور إلى قلبها. وذات يوم قال لها سانت جون:

– يا جين .. إني قلقٌ عليكِ بشأن هذه الحيـاة
الجديدة التي تقضينها ، يجب أن تجدي عملاً ما .. لا يمكن
ان تعيش الفتاة بلا هدف في الحياة .

* * *

وذات مساء ، كان سانت جون جـالساً في غرفة
الجلوسِ ويطالع كتاباً مختصاً بالهندستانية (١) بينما كانت

(١) وهي مجموعة من لهجـات شمالي الهند تعتبر الهندية الفصحى .
Hindustani



جين مهتمةً في كتابة التمارين المتعلقة بقواعد اللغةِ
الألمانية . كان سانت جون يتعلم اللغة الهندستانية لأجل
مهمتهِ التبشيرية في بلاد الهند ، التفت إلى جين وسألها :

– ماذا تفعلين ؟

أجابتْ :

– أتعلم اللغةَ الألمانية .

عندها قال آمراً :

– أريدكِ أن تكُفّي عن دراسة الألمانية .. تعالي
وادرسي معي اللغةَ الهندستانية .

صاحت بدهشة :

– هل أنت جادٌّ في كلامك ؟

أجاب مؤكداً :

– إني جاد كل الجد ، أريدكِ أن تُساعديني ..
لذلك اطلب منك أن تتعلمي اللغة الهندستانية.. وساقوم
انا بذاتي بمهمة تعليمك .. بهذه الطريقة أتقدم بسرعة
في دروسي .

لم تَستطع جين مقاومةَ رغبة سانت جون ، إنه

يؤثر عليها تاثير المغناطيس على المعادن. انه استاذ ماهر..
وكلما اجادت في الدرسِ، كلما طلب المزيد من الجودة
وليس بوسعها أن ترفض .

وخلال أشهر الشتاء تلك، لم تنسَ مستر روتشستر.
كانتْ تذكرهُ عند المساءِ بوجهٍ خاص. وبينما كانت تتعلم
الهندستانية على يد سانت جون، كانت تتوقعُ وصول
رسالة لها من مستر بريغس. لقد بعثتْ له برسالةٍ
بخصوص مستر روتشستر .

وأخيراً وصلت الرسالة، ولكنْ مستر بريغس، لم
يخبرها شيئاً يذكر. لذلك، وجّهت رسالة إلى مسز
فيرفاكس. وكتبتْ رسالةً ثانيةً.. ولكن، ظلّت
بلا جواب .

وذاتَ صباح، إستيقظتْ جين من فراشها حزينةً،
حائرةً، طلب منها سانت جون قراءة بعض النصوص
في الهندستانية. وفجأة انهمرت الدموعُ من مقلتيها
وبدأتْ تجهش باكية كالطفل الشريد. عندها، قال لها
سانت جون :



ـ تعالي نتنزه قليلاً يا جين .
ـ بصحبة ماري وديانا ؟
ـ كلا. هذه المرة سنتنزه لوحدنا .

إتّجها سوياً نحو تلّةٍ وراءَ المنزل. وعندما اقتربا
من بعض الأشجار، قربَ النهرِ، قال لها :
ـ هلاّ نستريح في هذا المكان .

وجلسا على صخرة بمحاذاة النهر، وظلا صامتين .
واخيراً قال سانت جون :

ـ سأترك لندن بعد ستة اسابيع .. وستبحر
السفينة في ٢٠ حزيران .
ـ وفقّكَ الله .. لأنكَ مسافرٌ لتنفيذِ إرادتهِ .
أجاب مؤكداً :

ـ هذا صحيحٌ، إني مسرورٌ، إنها فرحتي الكبرى.
ولا أفهمُ لماذا لا يُرافقني شخصٌ آخر. هل بمقدورك
القيامَ بمثلِ هذا العمل يا جين ؟
أجابتْ مُرتبكةً وقد استبدَّ بها خوفٌ مبهم :
ـ لا.. لا أدري يا سانت جون .

تابع قائلاً :

ـ أجل .. بمقدورك القيامَ بمثل هذا العمل ، يجب أن تُرافقيني إلى بلاد الهند ، تعالي وساعديني في مهمتي التبشيرية .

صاحت معترضةً :

ـ آه يا سانت جون .. لا أستطيع .

قال سانت جون :

ـ لكنكِ قادرةٌ على تنفيذ هـــذه المهمة يا جين . ستكونين زوجةً صالحةً لي ، لقد راقبتُكِ سراً طيلَ هذه الأشهر الأخيرة ، يجب أن تكوني زوجةً لي .

قالتْ له متوسلةً :

ـ أعطني بعضَ الوقتِ للتفكير ، أرجوكَ دعني لوحدي .. لدقائق معدودة .

ـ بالطبع .

وراح وحيداً ، يتنزهُ بجوارِ النهر .

وفكّرت ملياً لمدةِ ربع ساعة، أدركت بانهاقادرةٌ على تنفيذِ مهمة المبشّرة الدينية . لا تملكُ القوةَ الكافية،



لكنها تستطيعُ تادية هـــذا الواجب التقليدي . لكن سانت جون طلبَ منها كي تكونَ زوجةً له ، لا يمكن أن يوافقَ قلبُها على مثل هذا الإقتراح ، سيكون زواجاً غير معقول ، إنه لا يُحبها ولا تُحبه ، وقد تعرّفت قبلاً على الحبِ الحقيقي ، لذا ، يصعب عليها ان تتزوج شخصاً آخر بلا هذا الحب الحقيقي الذي ظفرتْ به مع مستر روتشستر . لقد قررت السفرَ مع سانت جون ولكن كرفيقةٍ له وليسَ كزوجة !

ورجعَ بعد فترةٍ وجيزةٍ من نزهته قربَ النهر ، قالتْ له بنبرةٍ هادئةٍ :

ـ يا سانت جون .. سأذهب معك إلى بلاد الهند .. ولكني لا أستطيعُ أن أكونَ زوجةً لك ، إني أعتبركَ أخاً لي وليس زوجاً .

لكنه قال معترضاً :

ـ ولكن يا جين .. لستِ أختي ولستُ أخاكِ ، وكيف بوسعي أن أسافرَ لوحدي مع فتاةٍ صبيّةٍ ، هي في التاسعة عشرة من عمرها وأنا في الثلاثين ؟ !

ومن جديد ، كررت له نفس الكلام تقريباً :

ـ سأذهب معك إلى بلاد الهند يا سانت جون .. سأحاول أن أساعدك ، ولكني لا استطيع أن أكون زوجة لك ، إنك لا تحبني كما يحب الزوج زوجته وأنا بالتالي لا أحبك كما تحب الزوجة زوجها ، وبلا حب لا أستطيع أن أتزوج .

اجاب سانت جون :

ـ ستتعلمين كيف تحبيني وسأتعلم كيف أحبك .

عندما سمعت مثل هذا القول ، استبد بها الغضب وقالت له :

ـ إني أكره تفكيرك بشأن الحب يا سانت جون . إنك تجهل معنى الحب ، اني أكره طلبك هذا .

وهو أيضاً ، استبد به الغضب عندما سمع مثل هذا الجواب الصريح والكلام الجـــارح ، وصاح غاضباً أشد الغضب :

ـ جين ! ما هذا الكلام ؟ لقد فوجئت به ! أعلم .. إنك مضطرة إلى البقاء في لندن لأجل شخص آخر ..



أليس كذلك ؟ ما زلت تفكرين بمستر روتشستر . لهذا السبب ، انت صعبة المراس معي أنا بالذات ، حسناً .. أنصتي إلي . إن مستر روتشستر هو رجل شرير وانت امرأة شريرة ، لأنك تبادلينه الحب ، ما زلت تفكرين به .. أليس كذلك ؟

أجابت بنبرة هادئة :

ـ أجل يا سانت جون ، يجب أن أعرف .. هل ما يزال بحاجة إلي ؟ لا استطيع ترك إنكلترا قبل أن اعرف الحقيقة .

وهدأت ثورة الغضب ، قال ببرودة :

ـ لا أستطيع أن أفعل اكثر من ذلك .. ولكني اسأل الله أن يساعدك يا جين .

وشعرت جين في قرارة نفسها ، بأن إبن عمتها يكرهها بسبب حبيبها روتشستر .

صاحت بنبرة يائسة :

ـ سامحني ، لم أقصد إهانتك ، لكننا غير متشابهين من حيث الطباع .. وافكارنا مختلفة. أرجوك ، أرجوك

سامحني ، ولكني لا استطيع أبداً أن اكون زوجةً لكَ .
أرجوك ، دعِ خطتك هذه جانباً .

أجابَ بنبرة معاتبة :

ـ كلا يا جين ، لا أستطيع أن أنسى ، فكرتُ ملياً بشأن هـذا الموضوع .. إني متاكدٌ باني غير مخطىء . سنتحدث عن هـذا الموضوع مرةً أخرى ، آمل أن يكونَ جوابكِ مختلفاً في المرةِ القادمةِ .

وانصرفَ عنها خائباً .. واتضحَ لها ، أنه غير قادرٍ على ادراك طبيعة حبها الصادق والصامد لحبيبها الأول .

* * *



وفي هدوء الليل ، اقترب منها سانت جون وضمها إلى صدره بحنان ومحبة فائقة، وقال بنبرة لطيفةٍ للغاية : بينما غاب سائر أفراد العائلة في سباتٍ عميق :

ـ أرجوك .. لا تبتعدي عني ولو لفترة وجيزة . آسف لأني أساتُ اليكِ بكلامي اللاذع ، لا أريد الإساءة اليك .. لكن الله يريدنا ان نتزوج انا وإياك يا جين .

ونسيت جين في هذه اللحظات مخاوفها ووساوسها وكادت أن تستسلم له وهو يضع ذراعه حول عنقها..واذ تسمع في اعماق الليـــل صوت روتشستر وهو يناديها مستغيثاً : « جين ! جين ! جين ! » .

وانهمرت الدموع مدراراً من مقلتيها .. أجل .. انه صوت إدوارد روتشستر في هذا الليل البهيم.. «يا إلهي!.. انه صوت الرجل الذي أحبه فعلاً » .. وحدثت نفسها يائسةً : « اني قادمة ! انتظرني يا حبيبي. أين أنت ؟ » .

وفي الصباح التالي ، رحلت جين إير من منزل عائلة ريفرز .. إلى غير رجعة .. رحلت إلى « ثورنفيلد » .. إلى حيث عثرت على سعادتها وتعاستها وفرحها اليائس كحبها تماماً .

لم يخبرها أحدٌ عن مكانِ حبيبها ، يجب أن تتكلَ على نفسها ، ستجده بنفسها عاجلاً أم آجلاً .. ربما ارتحل إلى فرنسا أو ألمانيا أو إيطاليا .. من يدري ؟

* * *

عندَ وصولها إلى الدارِ ..ماذا وجدت ؟ لم تجدْ أثراً للبيت ولأهل البيت على حدٍّ سواء ، انها تقف الآن ، شاردةً ، مبهوتةً أمامَ كومةٍ من الأحجار السوداءِ المُبعثرةِ هنا وهُناك .. وعلى الفور ، رجعتْ إلى فندق « جورج » في ميلكوتْ وطلبتْ طعاماً للترويقة . جاءتْ فتاةٌ صبيةٌ وقدَّمتْ لها الطعامَ نزولاً عند رغبتها .. عندها ، قالتْ للفتاةِ باستغرابٍ :

ـ هلْ تعرفينَ شيئاً بخصوصِ البيتِ الذي تهدَّم في « ثورنفيلد » ؟



ـ أجل ، إنه يخصُ « مستر روتشستر » . مسكين:

ـ مسكين ؟ ولماذا ؟

ـ لقد تُوفي .

ـ من ؟ إدوارد روتشستر ؟

ـ كلا . والدُه يا سيدتي ، يبدو بانكِ غريبةٌ عن هذه البلدة ، لقد التهمت النيرانُ البيتَ بكامله .. ولم يبقَ أثرٌ بعدَ عين .

هكذا ، أخبرتها كيف جاءتْ زوجتهُ المجنونة « برتا » ليلاً إلى فراشِ المربيةِ ، معتقدةً بانها ما تزال مقيمةً في هذا البيتِ ، وأحرقتْ فراشها .. ولكن .. لم تكنْ هذه المربيةُ موجودةً حينذاك .. إذْ ارتحلت سرّاً منذُ شهرين تقريباً .. لقد نجتْ باعجوبةٍ من موتٍ محتومٍ سببه غيرةُ امرأةٍ مجنونةٍ ! وغيرتها في محلّها .. رغمَ أنها مجنونةٌ . شعرتْ « برتا » بأن « جين » المربية الصبيّة ، استطاعتْ ان تاخذ منها زوجها « مستر روتشستر » !

سألتها جين :

ـ وماذا حلّ بزوجته المجنونةِ بعد أن أحرقت البيتَ ؟

ـ استطاع زوجها أن يخلّص جميع الأشخاص الموجودين في البيت إلاّ برتا.. ناداها : « برْتا » !.. لكنها لم تستجبْ لندائه بل اتجهتْ نحو السطحِ ورمت بنفسها فسقطتْ أرضاً .. جثةً هامدةً . أمـا « مستر روتشستر » .. فقد أثر عليه لهيبُ النـار .. عندما اقتحمَ النيرانَ وخلّص الجميعَ من مصير مشئوم ..

سالتها جين خائفةً مرتعشةً :

ـ لقد فقد بصرهُ . مسكين ! لقد أصيبَ بالعمى؟

ـ وأين يسكنُ الآنَ ؟

ـ إنهُ يعيشُ حالياً في « فرنْدين منْورْ » [1] يقال بأنه مكانُ منعزلٌ جداً .

ـ ومن يخدمه ؟

ـ العجوزُ جون وزوجتهُ .

---

(1) Ferndean Manor تبعد ٣٠ ميلا عن ميلكوت Millcote .



« فرنْدين منور » بيتٌ قديمٌ جداً ومنعزلُ بكل معنى الكلمةِ ويقعُ في وسطِ غابةٍ كثيفةٍ . حدّثت نفسها « جين » عندما وصلتْ إلى هذه المنطقة الهادئةِ، بواسطة عربةِ خيل : « إن فتاةَ الفندق على حقٍ .. إنهُ مكانٌ موحشٌ جـداً » . وما أن وصلتْ إلى الممرِ الترابي الضيّق الذي يؤدي إلى البابِ الرئيسي للمنزلِ حتى رأت شخصاً .. قد عرفته منذُ الوهلةِ الأولى .. لكنّـهُ قد تغيّـر كثيراً .. « سبحانَ من يُغيِّر ولا يتغيّر » .. إنه « روتشستر » بنفسهِ . رفعَ بصره إلى السماء .. بينما يهطلُ المطرُ بهدوءٍ وسكينةٍ . حاولَ جون العجوزُ مساعدته بل فرفضَ قائلاً:

ـ إبتعدْ عني ، لا أحتاج إلى مساعدة .

وعندما دخلَ إلى غرفته ، لحقته « جين » فاستقبل جون وزوجته ماري بفرحٍ وامتنانٍ .. وبعد أن أخبرتها

كل شيءٍ ، طلبتْ منها عدمَ البوحِ باسمها أمام « مستر روتشستر » . في هذه الأثناء ، نادى ماري قائلاً :

ـ أعطني كوباً من الماءِ يا ماري .

ودنتْ « جين » من « ماري » واخذتْ من يدها الكوبَ ودخلتْ هي بنفسها إلى غرفته عندها ، قال روتشستر :

ـ ماذا جرى ؟ من ؟ ماري ؟

أجابت :

ـ ماري موجودةٌ في المطبخ .

من أنتِ ؟ ما هذا الصمتُ ؟ من أنتِ .. إفصحي عن اسمِك ؟ هيَّا !

ـ بايلوت يعرفني.. كذلك جون وماري .

ـ هل أنا مجنون ؟

ـ كلا سيدي .. أنت لستَ مجنوناً .

ـ هل هذا شبحٌ هل هذا صوتٌ فقط ! هل الجسد موجودٌ أيضاً ؟ اقتربي مني،أريد أن ألمسكِ .لا أستطيع أن أراك،ولكني أستطيع أن ألمسكِ .



إقتربتْ منهُ ، ووضعَ يدهُ على أصابعها ثم قالَ :

ـ هذه هي بالذات .. أصابعُها الناعمةُ الصغيرةُ ؟

ثم لمسَ وجهها وشعرها وقالَ :

ـ « جين » ! إنها حبيبتي جين ! أليس كذلك !

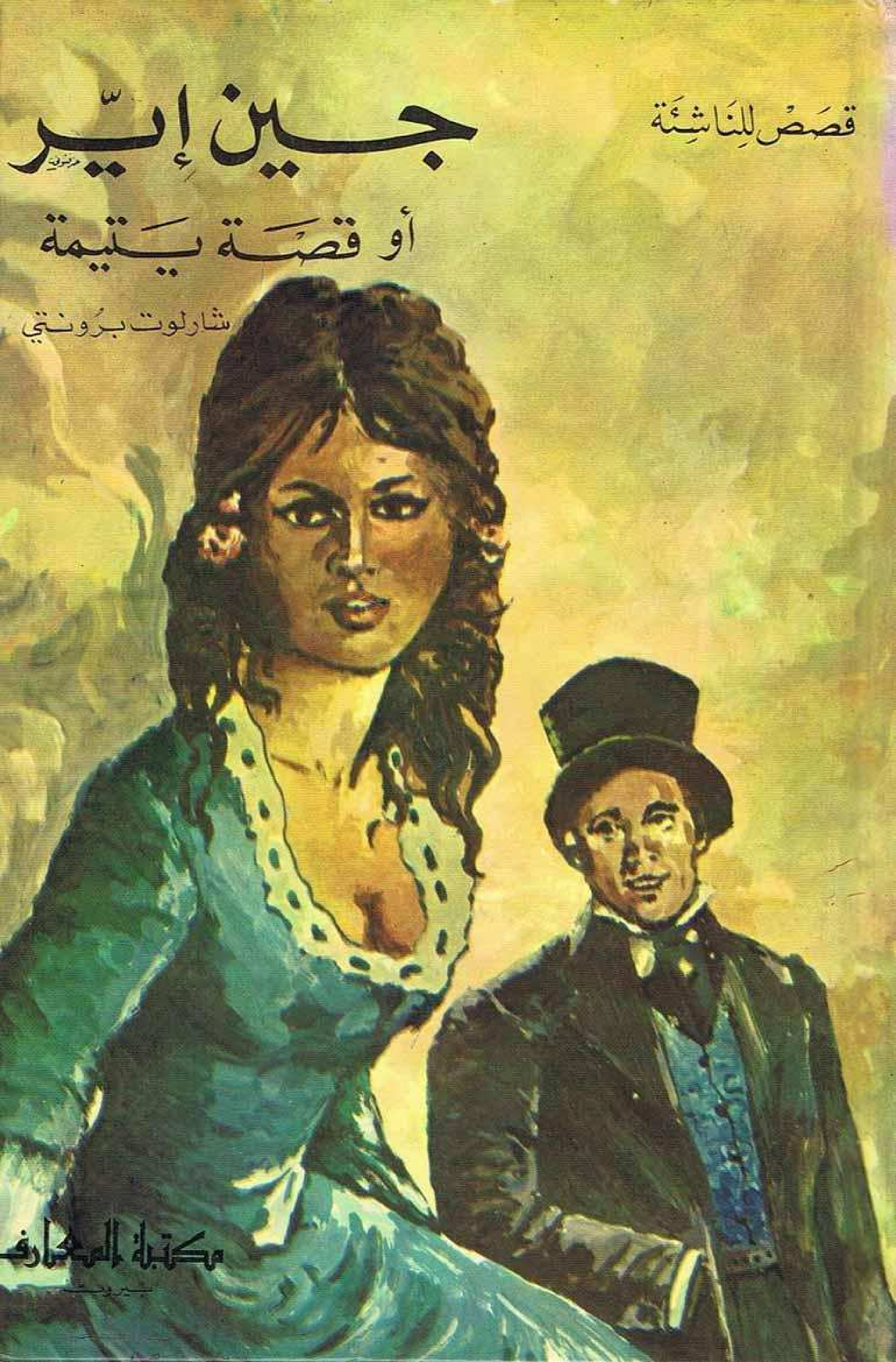
ـ أجل يا سيدي . لقد عدتُ أخيراً لأُعيش معك حتى ساعتي الأخيرة ، كم أنا مسرورةٌ الآن يا سيِّدي .

ثم أخبرتهُ عن المال الذي ورثته من عمها « جون » عندها ، قال لها :

ـ ما دمتِ غنيةً ، يجبُ أن تصرفي المالَ بصحبة الأصدقاءِ والصديقات .. بوسعكِ التمتعَ بالحياة بشكلٍ أفضل . لكنها ابتسمتْ وأكدّت لهُ بأنها لا تجد السعادة إلاَّ في دارهِ ولا تجد الحبَ إلا بين ذراعيه .. وبدونه تتحوَّلُ حياتها إلى ظلامٍ دامسٍ وإلى يأسٍ قاتلٍ ، ولا يهمها إن فقدَ يدهُ وبصره .. فما زالَ هو «روتشستر » حبيبها وفارس أحلامها .. وستتزوجهُ بدون أيّ ترددٍ . إنهُ تجاوزَ الأربعين على عمره وهي مـــا تزالُ في مقتبل العمر .. ونصحها بعدم التورُّطِ في حبه الجارف الذي سيؤدي حتماً إلى زواج .. فقبلتْ به زوجاً رغمَ

المصيبة التي المتْ به ... وأخلصتْ له كل الإخلاص .. « ومتى أحبت المرأةُ أخلصتْ » وشاءتْ العناية الإلهيةُ أن يستعيدَ بصره بواسطة عينٍ واحدةٍ بفضل عمليّـةٍ جراحيةٍ أجراها له طبيبٌ مشهورٌ في لندن ، وكافأ الله حبهما بهـــديةٍ أخرى : بولادةِ طفلٍ جميلٍ يُشبهُ أباه كثيراً .. استعادَ بصره كي يتمتعَ بجمال طفله وبروعةِ الطبيعة عندما يستفيقُ الربيـع بعد هبوب العاصفة التي أسقطت الشجرةَ الشاهقةَ في « ثورنفيلد» وماتت وحيدة في الغابة الموحشة .. لكنّ « روتشستر » الذي أصابتهُ عاصفةُ الحياة الماضية ، استطاعَ ان يُثمر من جـــديد ويبتسم للحياة رغم مصاعبها العديدة ...

وبفضل إخلاص « جين » وصمودها وتضحيتها ، تحوّلتْ التعاسةُ إلى سعادة وتبددّت غيومُ الياس لتشعّ مكانها شمسُ الأمل التي تشرق على حياةٍ جديدةٍ ومستقبل جـديدٍ لزوجين سعيدين يجمعهـما الحبُ برباطِ الزواج المقدّس.. للأبد . إن الأمل كنجومِ السماء .. تبدو أجمل وأحسنَ ما تكون عندما تكونُ السماءُ أظلمَ وادكنَ ما تكون . ( إنتهى )


قصص للناشئة
جين إير
أو قصة يتيمة
شارلوت برونتي
مكتبة المعارف
بيروت